المهمة المظلمة

اسم الكتاب: **المهمة المظلمة**

اسم المؤلف: **زينب أحمد**

تدقيق لغوي: **ق**

تصميم الغلاف: **ق**

الإخراج الداخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **ق**

الترقيم الدولي: **ق**

جميع الحقوق محفوظة ©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

darerteqaa@gmail.com

+201029303589

زينب أحمد

المهمة المظلمة

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع

(أى تشابه أسماء بين شخصيات الرواية
وشخصيات حقيقة أو أى أحداث متشابهه فى
الرواية مع أحداث وقعت هى صدفة لا أكثر وغير
مسئولة عنها)

المهمة المظلمة

(من الذي قتل دكتور جيفري)

امتد صوت رنين الهاتف إلى مسامعي غاضبًا من خلف غلالةٍ بناها كابوسٌ مقيتٌ وأنا أُقاد إلى المقصلة، مكبلة بالأغلالِ كشيطانٍ تقوده الملائكة إلى الجحيم، أفقت وأنا أشهق الأكسجين كغريقٍ يحاول النجاة، ثائرةً كل أعضائي تندد بجرمي، مطالبة بنفيي لما أسببه لها من تلفٍ ووخزٍ في كل وقتٍ، مرتجفةً أناملي وهي تتحسس الفراش في بحثٍ لاهثٍ؛ ليطمئن قلبي أنه مجرد كابوسٍ، فتعتدل خفقاته التي تعدت سرعة نمرٍ يلاحق غزالًا، أبصرت لوحةً معلقةً على الجدار لم أكتشفها ليلة البارحة عندما تركتني الممثلة المشهورة «ليالي فتحي» على عتبة غرفة النوم متمنيةً لي أن أصبح على خيرٍ، كنت مرهقةً وبائسةً

كبؤس جندي عاد يجر خلفه هزيمةً ساحقة، وأجفاني متدلية تضاجع النوم فاستسلمت في سباتٍ عميق، كمْ أعشق قراءة اللوحات وفك شفراتها وحل رموزها، يا له من أمرٍ رائع إذْ ظهرت لي يومًا ساحرة شريرة وكانت تكرهني وتكره اللوحات لتتلو عليَّ تعويذةً تحبسني بها داخل لوحةٍ زيتية، فأسبح في سمائِها، أسابق فراشاتها، وأركض خلف نجومها، وأعزف ألحاني تحت أشجار التوت حتى يوم تفنى فيه الحياة، جذبتني تلك اللوحة فلم أجرؤ على أن أتجاهلها، جررت قدمي إليها، تفحصتها على نحوٍ دقيقٍ، كانت لوحة الطوفان التي رسمها دزيريه ليعبر فيها عن عصر الظلام في أوروبا آنذاك، وربما عصر الظلام لدينا الآن، مشهد يمثل كيف يمكن للبعض أن يهيئ لك أن بعض الامتعاض فضيلة، وبعض القبح والخرف طهارة وقداسة، مشهد يتحدث من منطلق فينومينولوجي، فإن اعترضت سقطت في هوةٍ تسحق كل من سأل في ما قدَّسه الشرع، وعلينا أن نأمن خلف من يرتدون ثيابًا توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، حتى وإن كانت مدنسةً بخطايا الشيطان وتقبع بداخلها أشباحٌ ملعونة! مشهد جعل أوصالي ترتجف له، وأمتقع رعبًا لوحشيته، وعلى جدارٍ آخر علقت صورة وهي تحتضن ابنتها ذات الخمسِ سنواتٍ، كانت آخر صورة بينهما. كانت الغرفة توحي بالطمأنينة وترقص فيها الحياة مبتهجةً، ستائرها الحريرية بألوانها الزاهية المتناسقة مع جدرانها وسجادها الناعم الذي تغوص فيه قدماك بلون الشوكولاتة الداكنة، أساسها الفاخر الذي صُنِعَ من خشب الأبانوس، كرسي المهيري بلونه الثلجي، كما أنه نسج اللون الأصفر

الصحراوي القادم من ثُريَّاها، خيوطه الهادئة ليضفي عليها ديكورًا يقودك نحو أحلام اليقظة في مشهدٍ رومانسيٍّ، اقتربت من مرآةٍ عملاقةٍ لأطمئن على شحوب وجهي وهالات عيني وتشقق شفتي التي باتت كأرضٍ في سنواتها العجاف، تحيط المرآة عشرات الصناديق التي تتكدس بداخلها مستحضرات التجميل وعشرات من قنينات البرفيوم وأخريات وضعت فوق لوح التسريحة الزجاجي، فعبقت رائحة الغرفة كلها بعطرٍ فريدٍ مثل الذي صنعت باتريك زوسكيند في روايته العطر، اختليت بمذكرةٍ، مذكرةٍ كبيرةٍ وثقيلةٍ، تركتها «ليال» مفتوحةً فوق سطح (التسريحة) التجأت في خضوعٍ أقرأ الأسطر التي وقع نظري عليها دون أن أدخل في شرَك التعمد للتجسس أو التطفل على خصوصيات غيري، لكن ما نهب نظري تلك العبارات التي برزت بوضوحٍ أمام عينيَّ "لا شيء مثيرٌ في أن تكون مشهورًا، إن جاذبيتك التي تستهوي الكثير ستدفع ثَمَنهَا باهظًا، عِشْ حياتك كطائرٍ يعانق السماء فلا يقيم حدادًا إذا نبتت شعرةٌ مختلفة على وجهه، اركل الأرض بجنونٍ لتُسْقِط أي حنقٍ عن كتفيك دون أن تخشى ذرات التراب إذ رحلت لثنايا ثيابك، ولا تكترث للناس، فالناس هم الجحيم، يكرهون كل فكرةٍ مختلفةٍ، عقيدة مختلفة، ملبس مختلف، يكرهون كل شيءٍ ما دام لا يشملهم، حتى أنهم يمكنهم أن يرقصوا فوق الجثث ما دامت ليست من ذويهم ولا تخصهم، تمتع بالحرية فالحياة قصيرةٌ ولن تنتظرك لأن تستفيق من كدر ذلةٍ أو إرهاق فكرةٍ، عش كما تريد أنت لا كما يريد الآخرون، وتعلم كيف تخلق من موتك حياةً ..."، منعني ضميري أن أجوب باقي صفحاتها، فتركتها

ومددت ذراعي بتأنٍّ ناتجٍ عن شعورٍ بثقلٍ مجهولٍ نحو شماعةٍ علق عليها بات رداءً، التقطه وتوجهت إلى الحمام، تركت الماء البارد ينساب على جسدي، كان ثقيلًا كثقل رمال تنساب عليَّ من فوق جبل شاهق، تدفقت دمائي من خدرها رُوَيْدًا رُوَيْدًا، انتهيت حين شعرت باكتساب بعض النشاط، وقفت أمام المرآة مرة أخرى بعد أن ارتديت ملابسي في عجلٍ، وضعت مرطبًا للشفاه، سررت حيث بدوت أكثر إشراقًا وجمالًا، هبطت بهدوءٍ إلى الطابق الأرضي، وحينها توجهت إلى حديقة الفيلا عندما أخبرتني مدبرة المنزل أن «ليال» تنتظرني هناك، كانت تجلس حول طاولةٍ معدنيةٍ مستديرةٍ ذات سطحٍ زجاجيٍّ، وحولها وضعت أربعة مَقَاعِد من خشب الأكاسيا، وقد وُضعت فوق كل مقعدٍ وسادة مريحة، بدت وهي ترتشف قهوتها في صمتٍ كأميرةٍ سقطت من كتب الأساطير، كانت تجلس شاردة الذهن، وحين تناهى إليها صوت خطواتي، رَنَتْ إليَّ بنظرةٍ مخضلةٍ، وابتسامةٍ متوهجةٍ، دنوت منها أكثر فأكثر، سبقتني بالتحية المعتادة بنبرةٍ مبهجةٍ، إلَّا أنها دللت الياء بسخاءٍ، فمدتها لثلاث حركاتٍ قائلةً:

- صباح الخيير.

رددتُ بصوتٍ منخفض وأنا أسحب كرسيًّا لأجلس علية:

- صباح الخير.

قلتها بضعفٍ يمتد حتى هاوية الياء وكيد الراء، جلست مقابلة لها، تأملت جمال وجهها لبغتةٍ فذبت في غصون عينيها الخضراوين، بادلتني نظرة إعجابٍ، ثم ضيقت عينيها وحلقت في سماء الفكر وهي تتطلع لي وكأنني لغزٌ يروق لها حلُّه، ثم قالت بصوتٍ ناعمٍ أملس:

- أتمنى تكوني نمتي كويس.

ثم أضافت بلهجةٍ حثيثةٍ:

- ولا أنتِ من الناس اللي مش بيعرفوا يناموا كويس لما يكونوا مغيرين مكانهم زي حضرتي؟

لم يكن اتكاؤها على الياء صدفةً عابرةً، بل يبدو أن بينها وبين ذلك الحرف علاقة وطيدة، وقصة عشقٍ فريدة، حيث قالته بتغنجٍ واضحٍ في كلمة "حضرتي"، رددت بنبرةٍ مرتجفةٍ تستدر الإشفاق:

* بالعكس، بقالي فترة طويلة منمتش بالطريقة دي.

دعت الخادمة فأتت متأهبةً للخدمة وهي تكاد تتوارى خلف ابتسامةٍ منزوعة الروح، لاحت على وجهها الضامر، أدارت «ليال» رأسها نحوها وهي تقول: عايزاكي تجهزيلي أحلى فطار لاعتذار.

"اعتذار"، ذلك الاسم المختلس الذي قررت «ليال» أن تنسبه إليَّ وتنسبني إليه. كانت معدتي فارغةً من الطعام، لكن تغمرها مرارة تتفاقم حتى حلقي، مما هيأ لشهيتي الشعور بالامتلاء، أبدي لها بإصرار عدم رغبتي في الطعام أو حتى الشراب، لكن ما تحلت به من صفاتٍ مثل الكرم واللطف الوديع جعلها لم تحفل برغبتي، وأمرت الخادمة بأن

تقوم بتجهيز عصير البرتقال ووجبةٍ شهيةٍ من الفطور، وما لبثت أن استدارت الخادمة فاستطردت في حديثها قائلةً بلهجةٍ جامدةٍ كمحققٍ بوليسيٍ:

- «نبض»، مين اللي قتل دكتور جيفري "Jeffrey"؟

جاء سؤالها إليَّ كمطرقةٍ هوت فوق رأسي واختلجت أعصابي كلها بصوتيةٍ صماء، زفرت زفرةً محرقةً وكأنني أشق بها ثقلًا أسود يجثم فوق أنفاسي، وحلق الصمت مضضه في كل أرجاء فمي. فتابعت تقول بعد أن كبس عليها ضيقٌ شديدٌ من صمتي:

- أنا مش وافقت إن أساعدك وأعرَّض مركزي اللي حاربت عشان أوصله كتير عشان أنا واثقة في براءتك أو متأكدة أنك مظلومة، لأ.. لأن باختصار كل كلامك منافي للمنطق مليان ملابسات غامضة وغريبة متدخلش عقل أي حد حتى لو كان مجنون ومبينسجمش مع أي فكر سوي، أنا وافقت بس عشان ...

لاذت في صمتٍ، ولم تكمل ما أرادت أن تقول، وترقرقت الدموع في عينيها وقد اختلجت شفتاها اختلاج الجسد المعذب.

لم يكن هذا اللقاء هو الأول بيني وبين «ليال»، فمنذ أربعة أيام التقيت بها عندما أخبرتها بأن ابنتها ما زالت على قيد الحياة، رمقتني حينها بنظرة مشككة، قدمت لها كافة الأدلة التي حصلت عليها، وصورتين من جوازين للسفر، أحدهما خاص بالسيدة التي سافرت أبنتها في كنفها والآخر خاص بأبنتها، حكيت لها كل شيء بالتفصيل وكيف القدر ساق

إلى طريقي ذلك السر، حينها فقط شعرت بسعادة لا توصف وتمنت لو أن الله ملَّكها العالم بأكمله لتهديه لي.

تابعت بعد برهة من الصمت بأسىً: لازم تكوني صريحة معايا عشان أقدر أساعدك وتقدري تساعديني أني أرجع بنتي وتأكدي إن أنا عمري ما هتخلي عنك.

قالت ذلك وشخصت بلحظٍ مغرورقٍ بالدموع إلى أشجار الحديقة التي امتدت أمام ناظريها.

شعرت بمخالبٍ من حديدٍ تزأر في رأسها ولا شيء يعبرها سوى المشهد المخيف الذي ما زالت تراه بوضوح، غاصت في ذلك اليوم الأسود عندما فتحت عينيها في صباح أحد الأيام على خبر اختفاء ابنتها، نزعها من ذلك الشعور جَزَعٌ عابرٌ استبد بها، غمرها بأملٍ مطمئنٍ دفعةً واحدة، وهذا ما كنت أتوق إليه، ذلك الأمل الذي أمسى بائدًا وأصبح اليوم لها حقيقة يعاود إليها من العدم، ما كان أبدًا يُمنح لها دوني، طريقٌ شائك لا يمكنها أن تعبره دون خرائطي التي منحتها إليها، ذلك الأمل الذي تبدَّل سقمها في ليلةٍ وضحاها إلى ربيعٍ، واعتلالها إلى شفاءٍ، ووطأة الهم التي احتلتها لسنواتٍ طويلة الآن تغدو فرجًا، تقترب منه بكل كيانها، وما دمت تفوقت في أن أمنحها ذلك الإحساس، فهذا يعني أن حياتي بالنسبة لها أصبحت هامةً، وستمتد يديها لصنوف ذلك الشقاء الذي أحاطني داخل غلالة القدر. فـ«لَيَال» امرأة بارعةٌ تمتد لها بعض أيادي آباء الوطن المهيمنين على كل الأمور كجسرٍ يتهشم فوقه كل من

لا يلتزم بقوانينه، امرأة ذكية العقل، بارعة الفكر، ناجحة في كل المجالات التي سلكتها، فإذا جلست وقف لها الجميع، علاوة على ذلك فهي حسنة الوجه والمظهر إلى درجةٍ متناهيةٍ. أعادت سؤالها بنبرةِ تلهفٍ ولومٍ:

- مجاوبتنيش يا «نبض»، مين اللي قتل دكتور جيفري؟

شعرت بصخرةٍ تتعملق فوق لساني أخرستني عن الكلام أو أخافتني، لا أعلم أي شعورٍ كان يستبد بي أكثر، الخوف أم سواه؟ بللت شفتيَّ بلساني مُحاوِلةً إفلاتَه من الشوك الذي انعقد عليه، لكنه لم يعد قادرًا على النطق بأدنى صوتٍ، غمغمت مرتعبةً من صمتي، ثم صاحت في وجهي مع رجفةٍ عصبيةٍ اهتز لها جسدها كله وهي تقول:

- لو مقولتيش مين اللي قتل جيفري أنا مش هقدر أساعدك.

امتد صراخها كصاعقٍ كهربائي أفقدني هدوئي وتوازني، فقلتُ في انهيارٍ:

- معرفش، لو اعرف مكانش زماني هاربة من حبل المشنقة ومطاردة من كذا جهة، كل اللي طلباه منك إنك تجمعي الأسماء اللي ادتهالك في الحفلة النهاردة، مش عايزة منك أكتر من كدة.

حدقت بوجهي لبضع ثوانٍ، وكأنها تريد أن تستشف الحقيقة، أن تتفرس الكذب من الصدق، وبعد هنيهة صمتٍ تنهدت بصوتٍ مرتفعٍ وقالت بأسًى:

- أنا متأكدة أنك عارفة بس يمكن معندكيش دليل، عشان كده رافضة تتكلمي.

- يبقى متفقين، حتى لو عارفة فمعرفتي ملهاش أي لازمة لأن كل شيء مترتب بقدرة عالية، والعدل مبيتقاسش عندنا باللي بنعرفه، بيتقاس بالأدلة والإثباتات، والأدلة كلها بتقول إن أنا اللي قتلت دكتور جيفري.

- كفت «ليال» عن الكلام واستجواباتها، وسادها شعورٌ عكَّر رغباتها وفضولها، ولم تنسَ أن تحذرني في قلقٍ من عدم ظهوري في الحفلة التي أعدتها اليوم لمناسبة اختيارها سفيرةً لتمثل السفارة المصرية بألمانيا، والحقيقة أن ذلك الاختيار لم يكن ناجمًا عن مجاملةٍ لها، فهي تستحق المنصب بجدارةٍ، فـ«ليال» ليست مجرد ممثلةً مشهورةً، بل تجيد الألمانية بطلاقة، وشهادتها التي تحملها ترشحها لذلك بإنصاف، فهي حاصلة على الدكتوراه في العلوم السياسية من قبل أن تدخل مجال التمثيل بعامٍ كاملٍ، ذلك المجال الذي تركته بعد خطف ابنتها بخمس سنواتٍ، وتفرغت لتقديم برنامجٍ تليفزيونيٍّ يعمل على البحث عن الأطفال المفقودين وإعادتهم، كما أنشأت دار نشرٍ أسمتها "ليال"، وحظيت بالشهرة في وقتٍ قصيرٍ وقد ترجمت من خلالها عدة كتبٍ بنفسها من الألمانية والإنجليزية إلى العربية، كما كرَّست كل حياتها لأنشطةٍ عديدةٍ كلها تخدم الإنسانية، منها إنشاء دار لمأوى المتشردين، وغيرها من الأعمال الإنسانية، فقد أرادت أن ترهق نفسها بالعمل محاوِلةً نسيان فقدان ابنتها لكن ماذا تنسى! لقد كانت كلما حاولت النسيان ازدادت رغبةً في استعادة الذكريات، وتراءى لها مستقبل ابنتها مظلمًا، أو يخيل لها هلاكها دون يدٍ رحيمةٍ تمتد لها؛ لذلك حاولت دومًا الهروب من نفسها حتى لا تسقط في فراغ الفراق، وتشوي أمنية

لقائها بابنتها على لهيب الأمل البائد. استبد بها بغتة خوفٌ مبهمٌ عندما تطلعت إلى ساعتها التي عُقِدَت على ساعدها المرمري، ونهضت في تعجلٍ وقلق، ولم تنسَ أن تحذرني مرة أخرى بعدم ظهوري في الحفل.

****

أعلنت الساعة التاسعة مساءً وبدأ فناء منزل «ليال» يزدحم بمدعويها وضيوفها، أقبلت في فستانها المثير ذي اللون الكستنائي المائل للبندقي، وقد برز ظهرها الطويل الفاتن كما أنه كشف عن ساقين ناعمتين ناصعتي البياض، رافعةً شعرها بشينيون ملكي فاخر، ليبلغ الجمال حد الزهو لانتسابه لها، ويتألق النور بثنائها، انبثق ضوء حسنها فوق رؤوس كل من حضر الحفل، فكانت حديثهم الشهي، وشخصت الأبصار إليها في هيامٍ وسرور، ارتطمت كعوب الأحذية بالأرض، وتسابقت الكلماتُ الناعمة المنمقة التي تذوِّب القلوب، غير أنها احتوت على كثيرٍ من السم المدسوس،

تَدَلَّلَتِ الضحكات المقتضبة من حناجر ملساء وتراقصت الضحكات الصاخبة على (طرقعة) الكؤوس لتصطدم بسحب دخان السجائر، فتسقط أمطار وابلة من الصفقات المشروعة وغير المشروعة، انغمست «ليال» في الحفل مع ضيوفها فراحت تبادلهم الضحكات والابتسامات والترحيبات كأميرةٍ من العصر الفيكتوري، استدارت فجأةً من مكانها عندما أبصرت ضيفًا آخر قادمًا نحوها، فأسرعت لاستقباله تعظيمًا وتمجيدًا لشأنه، إنه «أمجد الساحلي» شخصية سامية مرموقة، يمتلك من الخداع والمكرِ ما يجعل الموساد الإسرائيلي يطالب بتحرير فلسطين، ومن القوة والإصرار ما تنهار له الجبال، ومن الفطنة والحكمة أجزلهما، دلف إلى قاعة الحفل وهو يمشي بخطًى قوية، متزنة، منتصب القامة، مرفوع الرأس، استقبلته «ليال» بابتسامةٍ متوهجةِ الإشراق،

ووجه طلق ينم عن حدثٍ نادر، قائلةً بصوتٍ رقيقٍ ولهجةٍ شديدة الحماس:

- أهلًا أهلا يا أمجد بيه، نورتني.

أحنى رأسه إلى يدها وطبع عليها قبلةً، ثم نظر في عينيها نظرةً متمعنةً هدج بها كل ما اختلج صدره من سطوع جمالها الذي أذهله، وهيام قلبه الذي استحوذت عليه، وقال بنبرةٍ هادئةٍ أقرب للهمس:

- ألف مبروك يا سيادة السفيرة، وأتمنى أن منصب السفارة ميخليكيش تتنازلي عن أني أشوفك رئيسة الوزارة كلها.

ابتسمت «ليال» بغنجٍ ودلالٍ، وتطلعت إليه بنظرةٍ برَّاقةٍ وقالت بصوتٍ تسيل منه الرقة:

- وزارة إيه بس يا أمجد بيه؟ مش شايف أن الكلمة دي كبيرة شوية، ثم افلح بس في السفارة الأول.

انبرى يقول وهو يرفع إليها عينين حالمتين:

- ده بس بيتهيألك عشان دايمًا متواضعة ومش عارفه قدراتك.

أسرَّها قوله ولكنها عجبت في سريرتها لمقدرته على التملق والمكر وتحوير الوقائع وغش الحقائق، وارتداء الأوجه المزيفة كيفما يشاء، فحدجته بنظرةٍ مرتكزة الوداعة ثم قالت:

- أنت بس اللي مفكر كل الناس زيك مبيعرفوش شيء اسمه المستحيل، ومفيش أي معضلة بتقف قدامهم.

* بالعكس أنا إنسان عادى بس الفرق ما بيني وبين كتير، إن عندي أهداف وطموح ودايمًا بسعى لتحقيقهم، بس أنتِ اللي دايمًا شايفاني بخترق كل اللوائح والقوانين اللي في الحياة ومش بعيد شوية وتشوفيني سوبر مان كمان.

- أخطر بكتير يا أمجد بيه.

تلفت أمجد حوله بنظراتٍ عابرةٍ، ثم ركز في وجه «ليال» نظرة طويلة، وقال دون أن يكف النظر عنها:

* يجوز للشعراء ما لا يجوز لغيرهم يا «ليال» هانم.

- تقصد أني بظلمك وبتستثناني من عقابك؟

* ما أنتِ عارفة مفيش حد مسموحله بأي حاجة وكل حاجة غيرك.

تطلعت إليه بابتسامةٍ خجولة وهي تقول

- مش بقولك خطير يا أمجد.

فقال وهو يلتهمها بمقلتيه:

* أنا بردو اللي خطير، طيب والله أنا خايف على أنجيلا ميركل منك لما تسافري ألمانيا أحسن تقعديها في بيتها، وتمسكي مكانها.

- حتى في تهريجك مبالغ يا أمجد.

توقفت لبرهةٍ وكأنها تذكرت شيئًا هامًّا، فسألت وهي تقطب جبينها:

- صحيح هو «نادر» هيرجع أمتى من برلين؟

طغى على سريرتها شعورٌ بالكراهية والاحتقار، وانتابها شعور مقيت حين نطقت اسم «نادر»، لكنها حاولت أن تكتم ما خالج إحساسها بابتسامةٍ باهتةٍ، تظاهرت بها في سبيل الوصول إلى أهدافها، فأجابها نافيًا معرفته بموعد رجوعه، لكنه أكد لها أنه لن يعود قبل أن يحضر حفلًا هامًّا تستعد له ألمانيا لإقامته من أجل تكريم الشخصيات الهامة، فتطلعت إلى امرأةٍ قادمةٍ بنظرةٍ فارغةٍ وعقلٍ مخدر وهي تقول:

- صحيح نسيت أنه من يوم ما أخد كارنية البوندستاج مبقاش يفوته أي حدث مهم.

* كلها أسبوع وتسافري برلين وأكيد هيكون أول من يكون في استقبال جنابك.

بادلته نظرةً وهي تطأطئ رأسها ولاذت بالصمت دون أن تضيف أية كلمةٍ أخرى.

«نادر عبد الغفار» الخيط الوحيد الممتد إلى فولكر فرانك أخطر رجل بألمانيا، أو قوة الشر كما يلقبه البعض، كان نادر في تلك اللحظة يسير بخطًى حثيثة في ساحة "hackesher marict التي تقع في جنوب برلين، وهو رجل يميل إلى القصر يرتدي نظارةً طبية ومعطفًا رماديًا فوق بنطالٍ أسود، ويبلغ من العمر ما يقارب الخمسة وأربعين عامًا، يتوجه نحو مبنًى ضخم، يتكون من سبعة طوابق وهو من أحد أشهر سلاسل بيوت الدعارة المشهورة التي يمتلكها فرانك، إلَّا أنَّه قبل أنْ يصل إلى هذا المبنى بحوالي ثلاثين خطوة اعترضت طريقه إحدى

المومسات كما لا توحي هيئتها بغير ذلك، ويبدو أنها ليست من الموظفات رسميًّا بذلك المكان، وهى امرأة بارعة الجمال، ترتدي حذاءً ذا كعبٍ عالٍ وملابس شبه معدومة، تظهر كامل تفاصيل جسدها النضر، دنت منه حتى وقفت قبالته معترضةً خطاه ولفت ذراعها حول عنقه وهى تقول بتمايل ودلال ولهجة لا يجيدها سوى الشعب الألماني:

- يمكنك أن توفر عليَّ رسوم الدخول المبنى، وأوفر عليك أيضًا إنفاق الكثير من النقود.

ثم أردفت قائلةً بجرأةٍ أكثر وهي تتمايل وتضغط على عنقه بشبقٍ.

- خذني إلى منزلك أقدم لك المتعة مقابل ٨٠ يورو فقط.

ولا عجب أو خجل في ذلك الأمر، فالجميع يعلم أن ألمانيا تحتل المراتب الأولى في تاريخ الترويج للجنس والتجارة بالأجساد البشرية.

أمسك «نادر» ذراع المرأة وأبعده عن عنقه برفقٍ، وانجرف في طريقهِ غير مبالٍ بها، فصاحت قائلة بصوت مرتفع:

-٦٠ يورو وهذا سعر خاص لك.

توجه «نادر» برأسه نحوها ثم أدار جسده كله وخَطَا بظهره وهو يتطلع لها بأعجابٍ قائلًا بصوتٍ مرتفعٍ حتى يصل إليها:

* هذا عرض مذهل، لكن لديَّ مقابلة هامة الآن، انتظريني، لن أتأخر عليكِ.

ردت المرأة قائلةً "حسنًا"، وأردفت في همسٍ قائلةً بلهجة مصرية لا يجيدونها سوى الذين يسكنون الأحياء الشعبية.

- جاتك نيلة وأنت شكلك نتن.. يلا مستنياك يا خفيف.

دلف «نادر» إحدى أبواب المبنى الزجاجية حيث كانت تقف المومسات تستعرضن أجسادهن وفى ميسور المرء أن يتخيل في سهولة تلك الفتيات اللاتي وقفن عارياتٍ تمامًا، إلَّا أن البعض منهن ارتدين مايوه بكيني صغير يظهر من أجسادهن أكثر مما يخفي، وقد وقفن في كل أرجاء المكان أمام أبوابه الزجاجية وخلف نوافذه في محاولةٍ لجذب الزبائن إليهن، كما انعكس على بعضهن وميض لافتةٍ كتب عليها "أحترم المنشغلين بالجنس في جميع أنحاء العالم"، ولافتة أخرى دون عليها اسم المبنى grove point of sex"، مرَّ «نادر» على صالةٍ تتكدس فيها البغايا تتسكعن حاملات كؤوس وقنينات البيرة بين أيديهن، تناهت إلى مسامعه صرخات شبقة تنطلق بأنينٍ، وزمجرات من حنجرات تحيطها اللعنات، ويصب عليها الغضب من سيل آخر دفقة من العالم كزمجرات كلاب تستعد للوثوب، دلف إحدى غرف إدارة المكان والتي كان يقف أمامها رجلان مسلحان لحراستها، وحين دنا منهما أوقفه أحدهم بصرامةٍ، وأخذ منه هويته وهو يسأله عن السبب الذي جعله يرغب في مقابلة فرانك، وحين أخبره أن السيد فرانك في انتظاره، دخل أحدهم إلى الغرفة ليتأكد من الأمر، وقام الآخر بتفتيشه بواسطة جهاز suporscaner، خرج الرجل بعد دقيقتين وسمح له بالدخول.

دلف «نادر» إلى الغرفة بخطواتٍ مرتبكةٍ، وقد بدت الغرفة من الداخل أشبه بغرفةِ تحقيقاتٍ بوليسية، كانت خاليةً من الأساس عدا مكتب صغير، وأريكة جلدية أمامها منضدة صغيرة وُضِع فوقها كأسان وبعض زجاجات البيرة وعلبة سجائر وولاعة ومسدس Cp–1 روسي، وقد كان فرانك يتحدث في الهاتف عندما دلف «نادر» إلى الغرفة، متكئًا فوق هذه الأريكة شاخص البصر إلى إحدى شاشات كاميرات المراقبة. رجلٌ قوي البنية عريض المنكبين، أصلع الرأسِ، ولديه عينان واسعتان بارزتان متقدتان لونهما أزرق كزرقة الموتى، وأنف طويل وحاد وأذنان تشبهان مثلثين قائمي الزاوية، وبشرة بيضاء ممتزجة بحمرةٍ كدماءٍ مسكوبةٍ في قِدرٍ ممتلئٍ بالحليب، لكن ما ميز تلك الهيئة أكثر، هو حرف وشمٍ بجانب أذنه اليسرى، كان كلما لوى جِيده قليلًا برز بوضوحٍ على هيئة ﵀، وكانت هيئته كلها لا تثير في نفس المرء سوى شعورٍ مقيتٍ لا يمكنه أن يتركك دون أن تسأل كيف اجتمعت تلك الهيئة القاسية مع النفس الآثمة الشريرة؟ ولم يكن بمفرده في هذه الغرفة، بل كان يقف خلف الأريكة رجلٌ مسلح، وامرأة أنيقة.

– قلتُ لك أرسلهم لفحصٍ شامل، أنت تعرف أن سمعتي أهم من أي شيءٍ آخر، فتوافُد الغرباء لدينا مع بدء كأس العالم لا يعني أن نتخطى قوانين هذه المؤسسة.

هكذا أنهى فرانك حديثه مع الطرف الآخر الذي كان يحدثه عبر الهاتف.

يمتلك «فرانك فوكتر» ثروة هائلةً لم يكتسبها لأنه يعمل في مجالاتٍ غير مشروعةٍ أو سهلةٍ كما يظن البعض، ولا مجرد صدفة بحتة أو حظ ساقه الله إليه، إنما هي المحصلة للالتزام التام بقوانين ولوائح وإخلاص في العمل، فأيًّا كانت ماهية العمل، لا يستمر دون الإصرار على ثباتٍ لا يتزعزع بهذه القوانين، وهذا ما قصده «فرانك» بكلمة سمعته، وعقل يعمل أكثر مما يفكر، ويفكر قبل أن يعمل؛ لذلك كان الجميع حوله يرضخون ويسيرون معه إلى أهدافِه، اسلك كل طرق الشيطان بانضباطٍ وإصرارٍ وقواعد، وأنا سأضمن لك النجاح والازدهار، فإذا كنت تعد النجاح مجرد حظٍّ أو صدفةٍ، فسيصبح الفشل والاكتئاب واقعك.

لوَّح «فرانك» لـ«نادر» بيده لكي يجلس، فجلس بقلقٍ، وحين أنهى «فرانك» مكالمته، رحب بـ «نادر» بأسلوبٍ جافٍ مختنقٍ، وسارع «نادر» بجهد معبرًا له عن أسفه وخجله لما حدث في الصفقة الأخيرة من خللٍ وعدم التزامٍ.

- لا.. لا.. لا تعتذر، فهو ليس خطؤك وحدك، أنه خطئي أيضًا حين تسامحت في المرة الأولى؛ لذلك كان لا بد من حصد تلك الحماقة. على كل حالٍ لديَّ من تدخل وأصلح ما أفسده المصريون.

قال «فرانك» ذلك بغضبٍ، ثم أمسك قنينة الكحول ومزق ورق التغليف، ونزع سدادة القنينة وأفرغ بعضًا من محتواها في الكأسين، قدم أحدهم إلى «نادر»، وتجرع هو كأسه، ثم تحدث عن صفقةٍ أخرى،

ففرحت روح «نادر» وعادت إليه الطمأنينة وشابت وجهه سحابةٌ من السرور، وتابع «فرانك» قائلًا وهو يشير إلى «نادر» بإصبعه السبابة:

- أنتم المصريون لا يمكنكم أن تكفوا عن توريطي في أشياءٍ لا تعنيني، إنني أتعامل مع دولٍ كثيرةٍ، والجميع يقدس الانضباط والشروط المتفق عليها بحذافيرها، إلَّا أنتم لا يمكنكم تحمل الانضباط.

توقف فجأةً عن الكلام، وأشعل سيجارةً واستأنف قائلًا:

- تنتهزون فرصةً واحدة لخلق مائة فرصةٍ أخرى مثلما تقولون تريدون قتل عصفورين بحجرٍ واحد، لا.. لا.. بل قتل عشرة عصافيرٍ بحجرٍ واحدٍ، وهذا ما يسمى بالعبث والهرتلة التي لن أسمح بها من جديد.

تطلع «فرانك» إلى ساعته وقفز واقفًا، التقط المسدس الذي وضع فوق المنضدة ودسه داخل جيب معطفه وهو يقول:

- كنت أتمنى أن يسعفني الوقت أكثر من ذلك كي نستكمل حديثنا، لكن عليَّ أن أذهب إلى الأكاديمية.

عاد «نادر» بتلهف باحثًا عن المرأة التي طلب منها أن تنتظره وقد وجدها بالفعل متكئةً على حائط مبنى في انتظاره، قادها إلى شقته بخطواتٍ تندلع منها النيران، كان على المرأة التظاهر في خطاها بنشاطٍ أيضًا، وعندما وصل إلى أمام باب شقته أدخل المفتاح في الكالون بتعجلٍ،، وضغط المزلاج بتصدعٍ، تنفست ملء رئتيها وزفرت باشمئزاز، وخطت بجواره إلى الداخل بكبحٍ، عليها أن تنجح في مهمتها وأن تكون ممثلةً بارعة في دور المومسات، فما لبثت حتى أظهرت في

مشيتها ونظراتها وهمسات أنفاسها الانحلال والتفسُّخ،، الآن أتقنت الدور كما لو أنها رضعت في مهدها تلك الصفاقة، تركت حقيبتها تسقط من يدها أسفل قدميها، سرت الدماء تقذف غليانها في أوصال «نادر» بسرعة البرق، حتى أنه لم يتحمل ثقل معطفه فوق جسده، نزعه وألقى به فوق الأريكة، دنا منها أكثر محاولًا لثمها، لكنها في غمضة عينٍ تضع ذراعها حاجزًا وهي تطلب منه التمهل، ذراعها لن يجهض مخطوطه، ولن يوقف الأظافر التي تنغرس في رأسه، ولن يخمد فوران قلبه دون أن يغشى كل ذرةٍ في ذلك الجسد النضر، تدفعه بقوةٍ وتحتال بالانسحاب من بين ذراعيه بجهدٍ كبيرٍ، تترجاه مرةً أخرى أن يتمهل، الآن يرضخ لرجائها ويبدأ في حلِّ ربطة عنقه وهو يحدق فيها بعينين متقدتين كذئبٍ يستعد لتحديد قبضته على فريسته، يتمتم:

- يا إلهي، إنكِ مثيرة للغاية.

تقف بكامل سحرها، أعربت شفتاها عن ابتسامةٍ كمسكنٍ ومهدئٍ، تلك الأنثى المدمرة للعقل ذات البشرة البيضاء المضيئة كإضاءة قمرٍ في تمام ليلة بدره، والشعر المسترسل الناعم الذي تُلبسه بريقًا كبريق الذهب الخالص.

تنحني على حقيبتها، تقوم بفتحها بيدين رخيصتين تخرج منها قنينة عطرٍ فاخرةٍ، شكل القنينة ورائحتها لا توحي بغير ذلك.

- يبدو أنكِ من اللاتي لا يستمتعن دون أن يستنشقن روائح عطرهن المفضل، أليس كذلك؟

- نعم، إنه عطري المفضل.

تقوم بفتح غطاء الزجاجة، تقترب منه كابحةً شعورًا مقيتًا يجعلها ترغب في التقيؤ، تحبس أنفاسها حتى لا تستنشق تلك الرائحة التي قامت برشها في وجهه، يستنشقه باستفاضةٍ ويتمتم:

- نعم، نعم ... إنها رائحةٌ لا يمكنك ...

لم يكمل جملته حتى تهاوى جسده مخدرًا فوق الأريكة، تستدير إلى حقيبتها تخرج منها جهاز حاسوبٍ صغيرٍ ووصلةٍ خاصة به، تتوجه نحو معطفه تبحث عن هاتِفِه داخل جيوبه، تحصل عليه من المرة الأولى، تقوم بتوصيله إلى الهاتف ثم تزرع برامج تتبع وتجسس لا يمكن اكتشافها، كما أنها لا تحتاج الإنترنت لكي تعمل، برامج لا يمكن تثبيتها عن طرق الهاكر بالبعد، تحصل أيضًا على أرقام باسورد للتخزين وأشياء أخرى، وحين تفرغ من عملها تضع الهاتف مكانه، ثم تأخذ كل النقود حتى تبدو له حين يستيقظ مجرد عملية اختلاسٍ من منحلةٍ لا أكثر.

وقف «أمجد الساحلي» وهو يرتب بذلته ويعدل بضع شعيراتٍ تدلت فوق جبينه وقد تجشمت المهابة في تقاطيعه، شاخص النظر إلى ضيفٍ آخر قادم يمشي بزهوٍ وخيلاء، يتبعه اثنان من الحرس الخاص ذوي الأجسام الضخمة والعيون الثاقبة التي تتفحص المكان مستشعرةً أي خطرٍ قادمٍ قبل وقوعه بدقةٍ بالغةٍ، إلَّا أن ساعته المصنوعة من الذهب الخالص والتي التف عليها خيطٌ أزرق بعث وميضًا لامعًا كخيط فتيلٍ

رفيع استقر فوق جبين «ليال» وهي تُثني عليه بترحيباتٍ اختصته بها، فهو من أكبر آباء الوطن قيمةً وقامةً، وقد رزقه الله من الثراء الفاحش ما يجعل خزائن جي بي مورجان تشيس(j p morganchase) تنهار أمامه، وإن كان الجميع يَتُوق لأن يتمسح به مثلما يتمسح الدراويش في مقامات أولياء الله الصالحين ظنًّا منهم أن التمسح به يجلب إليهم الحظ السعيد والرزق الوفير، فلا عجب في ذلك فـ «أدهم السلحدار» هو رجل الصعوبات وكل النجاحات وهو يدٌ من أقوى الأيادِ التي تهيمن على اقتصاد البلد كلها، دنا منه «أمجد الساحلي، وصافحه مصافحةَ المحبة والاعتزاز، فهو على معرفةٍ به وصداقة عملٍ منذ وقتٍ ليس بقليلٍ، ويحمل له في نفسه ميثاق المحبة والإخلاص، انتبذا ركنًا منفردًا، وبدآ في تجاذب أطراف الحديث حول شئونٍ تختص بأعمالهم.

أمَّا «صلاح محجوب» كان على وشك أن ينهي مداخلته الهاتفية مع أحد البرامج المشهورة، بعد أن سأله المذيع وهو يضيِّق عينيه ويستشعر أحاسيسه المصطنعة ببراعةٍ جيدةٍ، محاولًا التظاهر باهتمامٍ حول ما جاء في تغريدةٍ عبر توتر كتبها أحد رجال الصحافة المنافسين له، يتهمه فيها بعدة تهمٍ، لكن ما جعل «صلاح محجوب» يستشيط غضبًا هو ما جاء في النصف الأخير منها، حيث اتهمه بأنه يخاف عقوبة الأمن الوطني ولا يتجرأ في حديثٍ يتعدى الخطوط الحمراء المسموحة له، وما لبث المذيع أن أنهى كلامه حتى نسي «صلاح محجوب» أنه داخل حفلٍ، فقاطعه بعصبيةٍ وارتباكٍ قائلًا بصوتٍ مرتفعٍ:

- هقول له مش عشان أنت واحد**وعايش حياة ال*** يبقى تفتكر كل الناس زيك بيخافوا زي ما أبوك وأمك بتشوفهم دايمًا خايفين يا**

لم يحاول «صلاح» كبح غضبه أو يكترث لجرأته، واستمر في عصبيته وغضبه محاولًا أن يبرئ نفسه من تلك التهمة الشنيعة في نظرِهِ حتى أنه استطاع أن يظهر أن الأمن الوطني ليس عليه أي سلطانٍ وأن ما تكتبه جريدته هو ما يؤمن به في قرارةِ نفسِهِ، نهاه المذيع بعصبيةٍ أيضًا من طريقته الخالية من الوداعة والأسلوب المهذب في الردِّ على خِصمِهِ.

(قبل مداخلة «صلاح محجوب» بشهرين و نصف)

كان يجلس خلف مكتِبِه العريض بجريدته (الرأي الحر المخالف) شاخص البصر باهتمامٍ في شاشة اللاب توب التي نصبت أمامه وكأنه يحاول أن يبت في مشكلةٍ خطيرة، دلف إلى مكتبه شاب يمسك في يده مقالًا، وهو شابٌ نحو الثلاثين من عمرِهِ يميل إلى الطول، لكنه ليس طويلًا، له شعر أسود كثيف، وعينان واسعتان يميل لونهما إلى البني الداكن، مما جعل وسامته طاغيةً، اقترب من «صلاح» حتى انحنى أمامه، وهو يمدُّ إليه يده المقال الذي يتكون من ثلاث صفحاتٍ، بدا لـ«صلاح» في غاية الأهمية عندما التقط نظارته الطبية ووضعها في تعجلٍ فوق مقدمة أنفِهِ، وأخذ يقرأ بوجهٍ تتراقص فيه السعادة كفراشاتٍ حظيت بحقلٍ مليء بالزهور النادرة، وبعد أن أكَّد ذلك الشعور بابتسامةٍ كشف بها قمةً سروره مع آخر سطرٍ قرأه، أعاد النظر إلى الشاب الذي كان يقف مبتسمًا، يكسوه شعورٌ عريقٌ كشعور عالم فيزياءٍ توصل

لاختراقٍ سيقلب كل الموازين رأسًا على عَقِب، وخاطب الشاب قائلًا بنبرةٍ شديدة الحماس:

- هايل يا سعيد هايل.. عايزه ينزل أول صفحة.

توقف بغتةً وقفز من مكانِه بتعجلٍ وكأنه تلقَّى لدغة ثعبانٍ، ثم استأنف قائلًا بتوتر.

- لا.. أنا عايزه ينزل في كل الصفحات.

ثم جلس مرةً أخرى بقلقٍ، مسح حبات العرق من فوق جبينه الضيق وتابع يقول:

- الغِ أي حاجة، المهم المقال ده والصور دي تنزل معاه.

كان يشير إلى ظرفٍ ملقًى فوق مكتبِهِ؛ لكنه توقف فجأةً عن الكلام وتغيَّرت سحنته وشرد ذهنه من هول المفاجأة عندما وقع نظره على رجلٍ أنيقٍ اقتحم مكتبه دون استئذانٍ، وقد برح الغم منه أثناء ما كان يتطلع له بذهولٍ وتضاربت أنفاسه من كبد ما فطره داخله، كان الرائد «هيثم عبد النبي» من الأمن الوطني، دنا من «صلاح» أكثر فأكثر حتى وقف أمامه، اختفت الشارة التي تحمل اسمه "صلاح محجوب ... رئيس التحرير".

التقط «هيثم» المقال من بين يدي «صلاح» في ضيقٍ شديدٍ، نظر إلى المقال وأخذ يقرأ، أعربت شفتاه عن ابتسامةٍ ساخرةٍ وقال وهو لا يرفع عينيه عن المقال:

- مقال جميل ولذيذ محظوظة جريدتك عشان تنفرد بخبر زي ده.

تسمر «صلاح» لبضع ثوانٍ واستبد به خوف لا يوصف حتى أدرك ما يحدث، وبلغت السخرية مداها عندما كور «هيثم» المقال ودسه داخل جيب المعطف، حينها أشار بأصبعه السبابة في وجه «صلاح» قائلًا بلهجةٍ حادة:

- لو كلمة واحدة انتشرت تخص الموضوع ده الجريدة هتتقفل، وأنت هتشرف عندنا.

توقف بغتةً ثم دنا من أذنه وهمس فيها قائلًا

- حتى تحين السماء ... ها أنت فاهم.

كانت لهجة هيثم شديدة التهديدِ واضحة الوعيد.

حدج «صلاح» «هيثم» بنظرةٍ عابسةٍ، وسأله وهو قاطب الجبين:

- ده تهديد يا حضرة الرائد؟

فاستنكر هيثم سؤاله وأجابه بامتعاضٍ شديدٍ ولهجةٍ لا تدع مجالًا للرد:

– الأمن الوطني مفيهوش تهديدات على قد ما فيه أمر ووجب تنفيذه، وأنت بقالك فترة يا صلاح يا محجوب حالك مش عاجبنا وبدأت تتدخل في حاجات متخصكش، وتشوف حاجات مش من حقك تشوفها.

وقبل أن يُتِم جملته تلك، نَظَر إلى مسعود وكأنه أراد أن يحدثه هو بها، وحدجه بنظرةٍ مروعةٍ طويلةٍ ودنا منه ثم وضع ذراعه فوق كتفيه، وقاده إلى الباب فاستوقفه قبل أن يخطو خارجه، وهمس له قائلًا:

- إيه يابو السعد الحماس ده كله، والإصرار، في مقولة بتقول أنت وحدك المسئول مسئولية كاملة عما أنت عليه، وعن أي شيء آخر ستؤول إليه، مش كده بردو يا دكتور؟ عامة أنا معجب بإصرارك ده والله، لو كل الشباب شافوا شغلهم زيك كده كنا بقينا في حتة تانية خالص، أنا حتى بقول تيجي تشتغل معانا بدل «صلاح محجوب».

تمتم سعيد قائلًا ببعض الارتباك:

- أنا مبحبش الشغل المقيد اللي فيه أمر و...

قاطعة هيثم قائلًا:

- أنت معاك الجنسية الألمانية مش كده؟

فأجاب سعيد في امتعاض:

- أيوه معايا.

- وكمان الدكتوراه في الفيزياء من جامعة إبرهارد كارل صح؟

- صح

* هو أنت غاوي جنان ... يا بني شغل الأجانب ده مش هينفع هنا، إيه بقى اللي يجبرك على شغل الصحافة والبهدلة دي غير أنك مجنون!

- عشان في ألمانيا علمونا إن الحاجة اللي بنحبها أهم من الحاجة اللي ...

قاطعه «هيثم» مرةً أخرى وهو يربت على كتفه بعدم اكتراثٍ لحديثه قائلًا:

* طيب أنا هستناك الساعة ٥ تجيب الصور والفون اللي أتصور بيه، بس لو اكتشفت إن في حاجة طلعت كده ولا كده منه هزعل، وتيجي نشرب فنجانين شاي مع بعض.

قال «هيثم» كلامه هذا، وخطا للخارج دون أن ينتظر إجابةً أو تعليقًا، وقبل أن يبلغ طرقة المكتب صاح «صلاح» قائلًا:

- ابقوا وروني هتوقفوا السوشيال ميديا إزاي.

كان «هيثم» قد اختفى من الجريدة وتهاوى «صلاح» على كرسيه وهو يحترق كما كانت تحترق سجائره واحدةً تلو الأخرى.

كان قد انضم إلى الحفل اللواء «شكري راتب»، وهو رجلٌ يشغل منصبًا هامًّا بالمخابرات الحربية، وتربطه بـ«ليال» صلة قرابة قوية، وقد أعجب بذكاء عقلها وحماس نشاطها منذ أن كانت طفلةً، فاتخذها ابنةً ثانية، واتخذته أبًا وقدوة مثالية، وكان لها دائمًا نعم الأب الذي يستمع لها حين تبث شكواها، ويفرح لها حين يبصر قلبها ما ينشده من السعادة.

جلس حول مائدةٍ وقد شاركه المائدة والحديث كلٌّ من الدكتور «طارق الخولي»، وهو شابٌ في أواخر العقد الثالث من العمر، وكاتبٌ مشهورٌ حاصل على الدكتوراه في الأدب ذو شَعْرٍ نفاث، داكن اللون مقصوص بطريقةٍ معاصرةٍ أنيقةٍ وعينين سوداوين زادته وسامةً وجمالًا، و«رأفت الخضيري» وهو صاحب أكبر سلسلة فنادق ومطاعم وقد تناولوا حوارًا سياسيًّا لا يلائم أجواء الحفلات الأرستقراطية.

تابع «رأفت الخضيري» حديثه قائلًا بانقباض:

- من وجهة نظري أن الحل في المدارس العسكرية وبجانبها نضم دروس توعيه وانضباط.

فقاطعة طارق قائلًا بحدة:

- أكيد الشعب مش هيلتزم بالمدارس العسكرية ولا بدروس التوعية؛ لأنها كلها حجات متواجدة بالفعل.

* صح.. عشان كده لازم الجيش يتولى المسألة دي في أقصى سرعة، ويفرض غرامات على أي حد يتخلف عن الدروس دي أو المدارس.

تنحنح اللواء «شكري» وهو يستمع لهم بصمتٍ، وقال بتهكم:

- حيلك يا عم أنت وهو، مدارس عسكرية وغرامات!

ثم تنهد وتوالى قائلًا:

- انتوا عايزين يقولوا الجيش عاملها سبوبة يطلع بمصلحة من وراء الغرامات دي ومنخلصش؟

كانت «ليال» قد دنت منهم في تلك اللحظة، وسمعت بعض أطراف من حديثهم، فعلقت مازحة:

- وأنا هكون أول المخالفين، وهتطلعوا من الحفلة دي بمبلغ مش بطَّال.

فضحك الجميع وساد الطاولة جوٌّ من المرحِ، ثم أردف اللواء شكري مُوجِّهًا حديثه إلى «ليال»:

- لأ يا حضرة السفيرة، أنتِ اللي هتحليلنا المشكلة دي ولا هتبقي سفيرة خيبانة وتغرقي في شبر ميه ومش هنستفيد من جناب سيادتك؟

* its not rocket scienee.

ثم تابعت باللهجة المصرية:

- أنا شايفة الحل أن يكون عندنا أكاديميات علمية وفنية ورياضية تهتم بكل المواهب وتنسقها للأطفال من بداية المهد وتبدأ تطويرها بشكل عصري عشان نقدر نتحول من قوة بتاخد لقوة بتنتج وتعطي.

ثم استأنفت كلامها وهي تصوِّب نظرها نحو «رأفت الخضيري»:

- وكله بالحب يا رأفت بيه، مفيش حاجه بتيجي بالقوة والغصب، إحنا مش عايزين مجتمع ديكتاتوري، وأنا عامةً لا أؤمن بالعنف إطلاقًا.

* أحيانًا الدبلوماسية والحب بيكونوا أول عوامل الخراب والهدم، ولو بصيتي لتواريخ الدول اللي حققت أهدافها هتلاقيها اتخذت الديكتاتورية سلاحًا من ضمن أسلحتها، الموضوع عامل زي سفينة وفيها عشرين وكل واحد ليه فكر مختلف وشايف فكره هو الصح وعايز يبقى هو القبطان، وكلهم واقفين يتخانقوا، يبقى عشان السفينة توصل لبر الأمان لازم الأمر هنا يتطلب الديكتاتورية، بما أن مفيش أي حلول غيرها.

قالت «ليال»:

- آه انتوا بقى جايين تقلبوا الحفلة لنقاش حول بروتوكول وسيكولوجية الشعوب لإيجاد الحلول المصيرية من بين الأفكار الدوغمائية يا حضرة الحاكم الأوتوقراطي!

هتف طارق «قائلًا»:

* الله، تصدقي ينفع عنوان كتاب في علم النفس!

فلكزته «ليال» في رأسه لكزةً خفيفة وهي تقول:

- إيه.. دماغك دي مفيهاش حاجة غير الكتب والكتابة.

فقال اللواء «شكري» في حيرةٍ تحت ثقلٍ من مضض النفس:

- كلٌّ يغني على ليلاااه.

فهزت «ليال» رأسها وهي تتأهب لمغادرة المنضدة، لكنها تريثت وقالت وهي تتأمل اللواء «شكري» بنظرةِ شكرٍ ومحبة:

- ربنا يخليك لينا وللبلد يا أعظم ما أنجبته البلاد.

قفز «طارق» واقفًا وطلب من «ليال» أن تنتظر قائلًا بجدية.

- ليال.. استني عايزك.

انبثق من ذاكرتي لقائي الأول بطارق قبل عشرة أشهرٍ، في صباح يومٍ توجهت إلى جمعية الأمل لكفالة اليتيم وهي جمعية خيرية أسسها الشيخ «حمزة النميري» صاحب قناة "الكلام الحسن"، ذلك الرجل الذي ترك لذقنه الحرية كي تنمو كما يحب، وحاجبين غليظين تخيلت لوهلةٍ أنه قام بحلقهما وأهداهما لمريض سرطانٍ ليزداد هيبةً ووقارًا في

عيني، أمَّا الشامة التي توسطت جبينه كانت قد نمت بسبب كثرة السجود ظننتها يومًا هديةً منحها الله له كي يميزه عن سواه، كانت معرفتي به سطحية، عرفني يومًا عليه زوجي حين كان يرسل معي مبلغًا من المال بهدف التبرع به للدار، ولأن أقلَّ مبلغٍ كان لا ينقص عن المئة ألف جنيهًا، كان الشيخ حمزة يحرص على أن يسلمني إيصالًا خُتم عليه ختم تلك الجمعية، وأترك إمضائي بداخل دفتر دون أن أفكر لوهلةٍ لماذا أمضي هذا الإمضاء، وأرحل سعيدةً كفراشةٍ ترقص في بستانٍ من الفردوس لكوني أشارك زوجي هذا الثواب، يا له من أمرٍ عظيمٍ أقوم بفعله حتى وإن كانت كل مهمتي هي ذلك المندوب الذي يوصل فعل الخير بمكان الخير، وكنت أحتفظ دائمًا بكل الإيصالات داخل حقيبةٍ صغيرةٍ بعنايةٍ كبيرة.

ذهبت ذلك اليوم لأقوم بمهمتي المعتادة، التقيت بـ «طارق» في طرقةٍ تفضي إلى مكتب الشيخ «حمزة» مباشرةً، تشبه زقاقًا ضيقًا، كان في ذلك الوقت «طارق» خارجًا من مكتب الشيخ حمزة مستشيطًا غضبًا، ودفع الباب خلفه بعنفٍ وعصبية، كان الأدرينالين بجسده مرتفعًا إلى الحد الذي لم يرني، فاصطدم بجسدي، فانحرفت يمينًا محاولةً تفادي ذلك الاصطدام، فانحرف بتوترٍ يمينًا في نفس اللحظة، حاولت أن أنحرف يسارًا كي أترك له مسافةً يمر من خلالها، إلَّا أنه انحرف دون قصدٍ كذلك، فوقفت متسمرةً بمنتصف الطرقة ووقف قبالتي، انتابني شعورٌ مباغتٌ، وشعرت بحرقةٍ بارقةٍ تتسلل إلى أنفاسي، تهاوى عطره إلى أنفاسي أيضًا كرائحةٍ ثقيلةٍ، لا أحب الوجوه العابسة ولا الأصوات

المرتفعة، لا أحب أن أرى أي شجارٍ حتى وإن كان شجار عصفورين، ينصهر قلبي وتتضارب دقاته حتى التهشم، وترتجف أوصالي دون القدرة على السيطرة عليها.

رفع رأسه وتأملني على حين غرةٍ، وقد شابه فزعٌ وشرودٌ، وتمتم قائلًا بذهول:

- مش ممكن الشبه ده، مش ممكن.

تنهد بصوتٍ مرتفعٍ، شعرت حينها بأنفاسِهِ لاذعةٍ وحارة تُوتر أعصابي كما لو كانت ذكرى عابرة لا أحب أن تستيقظ، حاولت تجاهل حملقته، ونظرت إلى الأرض كي أخفف من وقع حمولة الموقف، ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ كما لو أنها ابتسامةٌ يتيمة حزينة، إلَّا أنها غمرته دفعةً واحدة بفرحةٍ غريبةٍ وقال ببطءٍ شديد وهو يشير بيده نحو الجزء المتبقي من الطرقة:

- اتفضلي عدي.

دلفت إلى مكتب الشيخ «حمزة» ودقات قلبي متضاربةٌ، استقبلني كالعادة استقبالًا حافلًا بالترحيبات يليق بالمبلغ الذي سأتبرع به إلَّا أن بقايا القلق والتوتر الذي ينم عن شجارٍ بينه وبين طارق قد بلغ أشده، فقد كان ظاهرًا عليه بوضوحٍ، سرحت لبرهةٍ بفضولٍ، وحدثت نفسي:

- لماذا كان ذلك الرجل خارجًا وهو يتوعد بحرق المكان بمن فيه، المكان الذي يتسابق فيه الناس على الخير!

ازدحمت الأسئلة على شفتيَّ، فسألت الشيخ حمزة عن ذلك الرجل، بدت نظرات الشيخ حمزة لي يكسوها قلقٌ مبهمٌ، ربما لأنه يعلم أنني ليست من عادتي التطفل على شيءٍ لا يعنيني، وبعد برهة صمتٍ أجابني قائلًا بتردد:

- ده الكاتب «طارق الخولي»، كافل أيتام هنا وبيجي كل فترة يسيب ليهم مبلغ.

ثم تابع بعد أن أمسك سبحته بتوترٍ وشرع في التسبيح:

- بتسألي ليه يا «نبض»؟

قلتُ ما حضر في سريرتي رغم محاولة عقلي في البحث عن كذبةٍ ماهرة:

- أصله شبه واحد قريبي يا شيخ، فاستغربت إزاي فيه ناس بتشبه بعضها أوي للدرجة دي.

- آه، مش بيقولك يخلق من الشبه أربعين، ربك قادر يا بنتي على كل حاجة.

انتزعت من شرودي نزعًا عندما دخل النقيب «حسام» بخطًى هادئةٍ وثقةٍ صامدة، ووجهٍ متألقٍ ينضح بالذكاء، فلما أبصرته «ليال» قادمًا نحوها وجفَّ وخفق قلبها وتولتها موجةٌ من الدهشة، ووثبت من مكانها وحدجت «طارق» بنظرةِ استغاثة وهي تشير نحو «حسام» بومضةٍ من عينيها، فأدار «طارق» رأسه إلى ما أشارت وحين رأى «حسام» أصابه جمودٌ وران عليه الصمت واسترعى انتباه حسام في تلك اللحظة ومضة

«ليال» حين استغاثت بـ «طارق» فاتجه بنظرهِ إلى طارق وحدجه بنظرةٍ بلهاء، أشاح طارق بوجهه إلى الجانب الآخر واستحوذ القلق عليه.

أسرعت «ليال» بعد برهةٍ من التردد والارتباك نحوه بخطواتٍ ثقيلة، ابتسمت ابتسامةً مرتعشةً باهتةً وهي تصافحه، وقالت دون تفكيرٍ بصوتٍ مختنق:

- غريبة.. مقولتش إنك جاي.

ثم ندمت واغتاظت من نفسها على اضطراب كلماتها ولكونها تعجلت الكلام دون أن تفكر به فاسترسلت تقول:

- بس مفاجأة حلوة أوي يا سيادة النقيب؛ لأن آخر حاجة كنت أتوقعها أنك تيجي، لأني عارفة أن الحفلات مش من أولوياتك.

ثم أضافت بلهجةٍ متهكمةٍ، ومبتحبش السهر كمان، بس عامةً نورتني.

هكذا استقبلته بكلماتٍ فاترةٍ مضطربةٍ تنم عن أن وجوده غير مرحبٍ به.

* ليه مبحبش السهر، هو حد قالك إن أنا طالب مدرسة، أنا كنت نقيب في العمليات الخاصة.

علَّق ذلك التعليق على كلامها، فلم يحفل له كثيرًا، ثم ما لبث وابتسم ابتسامةً ساخرة، ودارت عيونه بالمكان كله وكأنه يبحث عن شيءٍ هامٍ، أو يتطلع لحدثٍ أسفر قاب قوسين أو أدنى ثم حدجها بنظرةٍ مفعمةٍ بشكٍ مجهولٍ وهو يضيِّق عينيه.

استولت عليها الدهشة محاولةً أن تكشف ما بداخله بعينين مكتظتين بالفراسة، وقالت بتعجب:

- هو أنت بتقول إنك كنت ...

فقاطعها في عجب:

* ليه؟ هو «طارق» مقالكيش إني قدمت طلب إحالة للتقاعد؟

فعبست وتوغلت في فكرٍ حزينٍ، وحدثت نفسها قائلةً بدهشةٍ:

- أيعقل لرجلٍ شريفٍ مثلك، بارع الذكاءِ، ما حدَّث إلَّا وأصاب، يحب عمله كما لو أنَّه آخر رجلٍ مخلصٍ أن يقدم استقالته؟

تنهدت منفعلةً، وتابعت تقول:

- معقولة...! حضرة النقيب حسام اللي من أكفأ رجال مصر المخلصين ومن أنبل وأشرف ...

قاطعها حسام بتعجلٍ قائلًا بنبرةٍ حادةٍ وقوية:

- بخصوص النبل والشرف أتمنى لما تستلمي منصبك في ألمانيا يكون ولائك لبلدك شريف ونزيه.

أثار كلامه ذلك في نفس «ليال» استفزازًا وانتابها شعورٌ بالغضب، وودت لو أن أجابته إجابةً بغيضة، إلَّا أنها حاولت استعادة هيئة رصينة فيما كان الغيظ بداخلها لا يزال ينهش صدرها الضيق، وغضَّت الطرف عن لهجته واتهامه المتهكم لها، وردت في هدوء وثبات قائلة:

- ليه، عندك شك في غير كدة؟

فرد ببطءٍ شديد:

* أنا شغلي كله يعتمد على الشك.

فقاطعته بامتعاض وقالت متعجبة:

- ويا ترى إيه نوع الشك اللي بتوجهه ليا؟

فأعرض عنها متجاهلًا كلامها ووثب من مكانه وتحرك قليلًا وكأنه لا يرغب في متابعة الكلام، شعرت «ليال» بأنه يهزأ منها، فصعدت إلى حنجرتها مرارة وأرادت أن تطرد تلك المعاملة الدميمة من عقلها، فتحضرت لأن تخطو نحو إحدى صديقاتها إلَّا أنه خطا معترضًا طريقها وهو يشعل سيجارةً، فوقفت مرةً أخرى وتطلعت له بتشنجٍ ونظرةٍ رعدية عنيفة، استنشق نيكوتين سيجارته بشراهةٍ ونفسه بحنق شديد ثم قال:

- سمعت أن «اعتذار» بنت أختك جات من السويد مخصوص عشان تهنيكي وتبارك لجنابك، حقيقي مفيش أجمل من مودة الأهل والحرص على إيصال الأرحام.

فأيقنت في نفسها وفطنت إلى ما يدور في خَلَده، وأدركت أن قدومه للحفل لم يكن هباءً، بل كان ابتغاء مخططٍ له، وتعجبت كيف علم ذلك الأمر الذي لم يخرج خارج جدران بيتها، فاستحال وجهها من النضرة إلى الامتقاع، وقالت وهي تحاول التظاهر بابتسامةٍ عابسة:

- شوفت بقى، بالرغم من إنك ضابط عمليات خاصة بس معلوماتك غلط، عشان بنت أختي مجاتش تهنيني ولا تباركلي دي جات عشان

تصور فيلم وثائقي هتدخل بيه مسابقة تبع شغلها، وكمان قالت فرصة إنها تروج للسياحة المصرية من خلاله، أصلك معندكش فكرة «اعتذار» بتحب مصر بجنون وبتخلص لذرة التراب اللي فيها أكتر من أي حاجة في حياتها تاني، سبحان الله رغم إنها اتولدت وعاشت بره مصر بس الوطنية بتتولد في الدم مش بتكتسب.

وأردفت بلهجةٍ حادة:

- والشك يا حضرة النقيب مش دايمًا بيكون على صواب، أوقات بيتبني على سوء ظن وظلم، عشان كدة ربنا جعله خطيئة وإثم.

ثم أردفت بلهجةٍ لا تدعُ مجالًا للرد وهي تتأهب للانصراف:

– شرفتني يا حسام بيه، والبيت بيتك، بعد إذنك هروح أستقبل ضيفتي المذيعة الجميلة «منيرة شوقي»، وأشارت بيدها نحو امرأةٍ قادمةٍ قد شارفت العقد الخمسين من العمر، إلَّا أن هيئتها الظاهرية لا تشي بذلك؛ نظرًا لاهتمامها بالحفاظ على بشرتها من التجاعيد ولياقتها البدنية، وأحدثكم ولا حرج كمية من عمليات الشد والنحت لا تعلو عليها عالية، ولا تشوبها شبهة.

استيقظ في عقلي لقائي الأول بها بصخبٍ، بل تذكرت حتى حياتي قبل أن ألتقي بها، حياتي التي جعلتني ألتقي بها، تذكرت حين أخبروني أنني رقيقةٌ جدًّا حد الهشاشة وعنيدة جدًّا حد الكفر.

❊❊❊❊

تنبض ذاكرتي على طفلةٍ يوافق والدها أن يصطحبها معه إلى القاهرة عندما قرر زيارة شقيقتها عام ٢٠١١، يشتعل بعقلي وميضٌ لبقايا حلمٍ كان مشتعلًا بقوةٍ ليضيء العالم كله في ليالي الدجى، وقبل أن أحضر ملابسي حرصت كل الحرص أن أحضر معي دفترًا دونت به خواطري، وبعض الأشعار التي كتبتها أثناء ثورة يناير، توضأت وأمسكته بيدين طاهرتينِ ودسسته في حقيبة ملابسي، كانت كلماتي فيه تثور فتسطر حكايات وأساطير، يربكه صوت (أنا إخماتوفا) ويصعقه صراخ طير (العنقاء)، ويزدهر فيه نشاط (جيفارا) ويتعبه غفوته، وتستشيط فيه آلهة الإغريق غضبًا.

سافرت مع أبي إلى القاهرة أحمل أحلامي وأمنياتي داخل ذلك الدفتر، أضم عليه قبضة يدي بقوةٍ خوفًا من أن تستيقظ فيه الفرص العنيدة فتهرب من بين أناملي إلى الطريق المعتاد لكل أنثى وُلدت في تلك البقاع المظلمة المجعدة، كان قد تنحَّى مبارك عن الحكم ويدير البلد المستشار عدلي منصور، تركت شقيقتي التي تكبرني بإحدى عشر عامًا، وابنها ذا العشر سنوات يبكيان على رحيل مبارك بحرقةٍ، لا أذكر لماذا كان يبكيان بكل هذه الحرقة، ربما لأن شقيقتي ستفقد أغنيتها المفضلة "اخترناه وبيعناه"، لا أعلم كيف ستمر عليها ليلة صباح العيد دون أن تشاهد صلاة الرئيس مبارك عبر التلفاز، مع بث تلك الأغنية أثناء سير مركبيه حين الانتهاء.

وشقيقان سعيدان بالثورة يتخيلان أن المستقبل بساطٌ لمصباح علاء الدين، ومارده محقق المعجزات وأراضي الصخور الذهبية في الخيالات المجنحة لألف ليلة وليلة، بل كانا كثيرًا يتصورانه إلهًا يمنح كل الفانيين أفئدةً ويبدد الفقر المدقع إلى ثراءٍ ذي ترفٍ، وشقيقان آخران يتوعدان بمستقبلٍ سحيقٍ ينذر بأفظع الأمور، لكن رغم اختلافنا حول رؤية المستقبل والحاضر والماضي كان جميعنا يجمعنا قلبٌ واحدٌ ينزف وجعًا كافيًا لنزع أحشاء العالم بأكمله والكثير من الحنق على أبناء مصر الذين ضحوا بأرواحهم وانسكبت دماؤهم كماءٍ قذر مدنس بجرائم وذنوب لن تغتفر "الورد اللي فتح في جنين مصر".

كان سفري إلى القاهرة بمثابة البطولات في أعماق المحيطات، كشمسٍ مضيئةٍ في بلاد الأقاصي الخيالية، وعندما وصلنا القاهرة كانت هناك فكرة مراهقة تسيطر على عقلي، أردت أن أهدي كلماتي التي سطرتها كأشعارٍ وَخَوَاطِر لأبناء الثورة، كنت لا أملك أغلى منها، كان عمري ستة عشر عامًا، لكن كانت مشاعري بحجم ضوء كل الشموس والكواكب، استأذَنَتْ شقيقتي وزوجها والدي في أن يصطحباني في رحلةٍ، كان ميدان التحرير آنذاك مشهورًا كمكانٍ للتنزه، يأتي الجميع من كل مكانٍ لزيارته والتقاط الصور التذكارية معه، كبطل حربٍ خياليٍّ سقط من كتب التاريخ الأسطورية، جاء ردُّ أبي بالموافقةِ، سعدت حينها كسعادة عصفورٍ أفلت للتوِّ من قبضة صيادٍ مغوليٍّ في مساء ليلةٍ مليئةٍ بالرقص على الجثث المشوية لطيور الشحرور، ورحت أجرُّ قَدَمَيَّ خلف أختي وزوجها إلى الميدان كطفلةٍ تخطو لأول مرةٍ، فأتعثر بسبب

حذاء كعب عالٍ جِدًّا منحته لي أختي حتى يكون مناسبًا للفستان الذي ارتديته، فقد كان أقرب الملابس وأحبها إلى قلبي ربما لأنه كان يشبه كثيرًا فساتين فاتن حمامة في فيلم (موعد غرام)، نعم كان موعد غرامٍ تزفني إليه هبَّة الشوق المذبوح فتضرم قلبي وتحتضنني خارطةً حواسي، فتسقط رغباتي في نار محرقةٍ عظيمة، تتفجر براكين الحرية أمام عينيَّ كينابيع بئر زمزم، فتحملني براءة أمواج البحر حين تعانق المنتحرين.

وصلنا إلى الميدان، مر بجانبنا صحفيٌّ أجنبيٌّ، أزرق العينين، كثيف الشعر، رقيق الجسم، كان يحمل بين يديه كاميرا من wikow g800، وحين دنا منَّا تأملته شقيقتي بنظرةٍ وجلة، أشاحت بوجهها إلى الجانب الآخر وقالت مازحةً بصوتٍ أقرب للهمس "well come to Egypt" يا قمر.

أردت أن أكتبها كما قالتها، فرد وهو يبتسم قائلًا "thanks"، أراد أن يلتقط لنا بعض الصور، اعتذر له زوج شقيقتي بلطفٍ ومضى في طريقه، ومضينا نحن في طريقنا بعد أن تذمر زوج شقيقتي ونهاها بطريقةٍ جادةٍ على أن تكف عن المزاح.

هناك ثلة من الشباب إناث وذكور تجمعوا بإحدى زوايا الميدان، كبقايا من حطبٍ مشتعلٍ ما لبث أن خمد، يقبع بمنتصفهم شابٌّ يلقي الشعر العامي بتكلفٍ، يتفاعل بجسده مع كلماته كأنه يركض في سباقٍ سيقرر مصيره للأبد، كلماته ساخرةٌ وتعبيراته مضحكةٌ ولا يسع المرء عند

سماعه سوى أن يضحك، لكن المستمعين المنصتين إليه بكامل اهتمامهم، تعبيرات وجوههم تقول غير ذلك، وقفوا جميعًا يحدجونه بنظراتٍ عميقةٍ ذات إعجاب وتأثر وكأنهم يشاهدون للمرة الأولى فيلم (الطريق إلى إيلات)، يقف هنيهة يخرج فيها منديلًا من جيبه ويمسح بتوترٍ حبات العرق من فوق جبينه، وقبل أن يستأنف في شعره، يصفق له الجميع بحماسٍ شديدٍ ويهتفون:

- الله الله، كمل يا نجم.

عقدت حاجبي بذهولٍ لأبدو متأثرةً بكلماته مثلي مثل الآخرين، إلَّا أنني في الحقيقة أردت السيطرة على تشنج عضلات وجهي لكي أكتم ضحكةً حُشِرَت بحنجرتي، أمَّا شقيقتي فلم تستطِع السيطرة على زمام أمرها فقهقهت قائلةً:

- يلا دول مجانين شكلهم.

تذمر كل من سمع ضحكتها وعبارتها المهينة، لوى أحدهم عنقه ونظر إلينا بعينين جاحظتين يطوف فيهما الشر كحجاجٍ يطوفون حول الكعبة الشريفة، واستدار نحونا قائلًا بجدية وغيظ شديد:

- بتقولي إيه؟

ما لبث ودنا من زوج أختي قائلًا:

- هي بتقول إيه الأخت دي.

وكان مبالغًا في أسلوبه كمبالغةِ فريقين منافسين لكرة القدم.

فتجهم وجه زوج شقيقتي وامتقع وأجابه بتلعثمٍ وتوتر:

- احنا حضرتك من عشاق الشعر وعندنا شاعرة جاية من آخر بلاد الله مخصوص عشان تسمعكم حاجة من اللي كتباها عشانكم مخصوص والله.

وأشار بيده نحوي قائلًا:

- يلا يا «نبض» ادخلي سمعيهم الحاجات الحلوة اللي كتباها عشانهم.

تفحصني الرجل بنظرةٍ طويلةٍ وركَّز نظره على الدفتر الذي أضم عليه يدي، فتبدلت سحنته من الغضب والتذمر إلى ابتسامةٍ رقيقةٍ، وتلاشى الغضب وحلَّ محله الانشراح والود.

- جميل، لحظة واحدة هعديلك طريق.

تسمرت مكاني وانعقد لساني وغمغمتُ في سريرتي "اللعنة، أإلى هذا الحد زوج أختي جبان كي يقدمني قربانًا لهم؟".

حدجته بنظرة غضبٍ، فدنا مني وهمس قائلًا:

- يلا سمعيهم أي حاجة أحسن يتكاتروا عليا ويقطعولي زراير قميصي.

شق الرجل طريقه حيث أفسح لي مكانًا كي أمر عبره إلى المسرح الذي يقف عليه الشاعر، وأعلن للواقفين أنه توجد شاعرة تود أن نستمع لكلماتها، وجدت نفسي أقف في مأزقٍ لا فرار منه، فتقدمت ووقفت صامتةً، مرتبكةً، وقد احمر وجهي خجلًا وانتابني إحساسٌ كهرب كامل جسدي، حاولت أن أستجمع شجاعتي وأخرج من عاصفة خجلي وارتباكي، علم ذلك الشاب من قرارة نفسه أن الأمر بالنسبة لي ليس

سهلًا، فهمس لفتاةٍ تقف بجوارِهِ وما لبثت أن شقت الطريق إليَّ وهمست قائلةً:

- أنا الدكتورة «مي»، طبيبة صيدلانية وكل اللي حواليكي دول ناس محترمة جدًّا، نَحُّوا شاعرهم العظيم عشان يسمعوكي، فيا ريت متخذليهمشي.

وقد أرادت الطبيبة بحديثها هذا بثَّ الطمأنينة بقلبي، فتحت الدفتر وألقيت ما وقع عليه بصري.

كانت تلك الكلمات:

الله أكبر على ولادك يا مصر

دول هم أجمل هدية

ليكي حق تبقي قوية

وأكيد ١٠٠٪ محققين النصر

الله الله الله أكبر على أولادك يا مصر

وقت الشدة تلاقيهم يا بختك أنتي بيهم

الله حافظهم حاميهم

وبتتشرفي بيهم في كل عصر

الله الله أكبر على أولادك يا مصر

تشدق صوتٌ مطالبًا برفع صوتي، حنجرتي صغيرة للغاية ولا يمكن للأصوات المرتفعة أن تعبرها فتوقفت واجتاحتني عاصفة من الارتباك، وقد فشلت كل محاولاتهم وتشجيعاتهم في أن أكمل، والحقيقة كانوا لطفاء جِدًّا ومهذبين للحد الذي تريد أن تقول فيه للعالم كله "أحبك".

تركنا الميدان ومررنا بكورنيش النيل وقفنا أمام ماسبيرو، نظرت إليه عن كثب، غرقت في تفاصيله التي رسمتها له في مخيلتي منذ زمنٍ قبل أن أراه، تفاصيل تثير فضول أي فتاةٍ مراهقة، اجتاحتني رغبةُ الدخول إلى هذا العالم المغري لاستكشافه، وكمْ سأكون محظوظةً لو أصبحت جزءًا منه.

دخلنا عبر بابٍ ضخمٍ إلى فناءٍ يحيط المبنى بأكمله، كان أول ما لفت نظري شابٌّ يجلس على مقعدٍ أمام أحد الأبواب الصغيرة بداخل المبنى، متكئًا في مزاجٍ تأمليٍّ، تعلو ثغره ابتسامة رقيقة، نهض وسأل في سرورٍ.

- حضراتكم بتدوروا على حاجة؟

تنحيت أنا عن الكلام رغم ازدحامه بداخلي وصمت، تبادل الحديث مع زوج أختي باهتمامٍ.

- ممكن أقرأ حاجة من اللي كتباها.

مددت له الدفتر كله دون ترددٍ، وحين بدأ في القراءة تجلت عليه حالةٌ من السرور استولت على كل حواسه التي تتنحى من أجلها أشد المنغصات، خرجت الإعلامية (منيرة شوقي) بكامل أناقتها وتوجهت

نحو كشكٍ صغيرٍ داخل فناء المبنى وحين تحفزت للعودة، قفز الشاب قائلًا بصوتٍ مرتفع:

- أستاذة منيرة.

دنت منه وأجابته بلطف:

- أيوة.

- معايا واحدة بتكتب شعر حلو أوي.

قالها بحماسٍ شديدٍ وصوتٍ مرتفعٍ كما صرخ نيوتن عندما سقطت التفاحة من الشجرة معلنة معها جاذبية الأرض.

- وجدتها ... وجدتها.

تذمرت الإعلامية وحدجته بنظرةٍ محتدمةٍ، وزفرت وتأفَّفت ثم صرخت منفجرةً بوجهه بعنفٍ وبنبرةٍ كلها اعتراضٍ وتعالٍ قائلة:

- أنت عارف أن ده من اختصاصي أنت غبي مبتفهمش! واستدارت دون أن تكترث لقبحِ أسلوبها وكلماتها، شعرت بأيادٍ رعناء متوحشة تصفعني بعنفٍ، سهام مصقولة أطبقت على أحشائي، فارت الدماء بجسدي حتى نبضت، نزعني من ذلك الشعور المقيت صوت الشاب حين قال:

- الأستاذ «مصطفى كامل» هيجي الساعة ٨، هكلمه عنك، هستناكم اوعوا متجوش.

أومأت له برأسي إيماءةً ثقيلة وتساءلت:

- هل كان يراني سعاد حسني في فيلم صغيرة على الحب، فأراد أن يفتح لي باب الشهرة والمجد ليخلد فيه اسمه ويتباهى قائلًا "أنا اللي فتحتلها الباب"؟

تركت القاهرة وضجيجها الهادر وانجرفت مع أبي في الطريق إلى قريتي، الطريق يمتد تحت قَدَمَيَّ كوحشٍ خرافيٍّ، كلما خطوت خطوةً تقربني أكثر من بيتنا يتعملق ويلتف حول جسدي ويكبلني ككفنٍ، يتميز بيتنا عن كل بيوت القرية بسياجٍ يحتضنه من الأمام كقضبانِ سجان الكترز، وتمتد خلفه ترعة مخيفة أراها من نافذة غرفتي كطوفانٍ يمكنه أن يبتلعني في أية لحظةٍ متى شاء، مما يؤكد أن الاقتراب من بيتنا أمرٌ مميت، استقبلني أخي بابتسامةٍ ساخرةٍ ووجهه ممتقعٍ وحدجني بنظرةٍ أقرب لنظرة محقق شرطة إلى مجرم خطير وقال بازدراءٍ شديد:

- عجبتك القاهرة؟

أجبته بقلة اكتراثٍ لما يتلهف لسماعه لكي أفسح لغطرسته طريقًا تمتد عبره بارتياح:

* أيوة عجبتني جدًّا، وإن شاء الله قريب هسافر تاني.

تشنجت ملامحه وصرَّ شفتيه وانفجر في صوتٍ أجش:

- ده في المشمش، رجلك لو خطت بره عتبة البيت تاني هكسرهالك.

ثم استكمل بصوتٍ أكثر ارتفاعًا وغضبًا:

- أنا عارف إنك سافرتي عشان تدوري على التأليف والغنا والمسخرة دي كلها، أنا مش غبي، بس اتغافلت بمزاجي.

جاءت أمي مهرولةً على شجارِهِ، سألته في فزعٍ عن سبب غضبه، ثار في وجهها معلنًا أنني ذهبت إلى القاهرة لكي أسلك طريق الإثم والفجور، شهقت أمي وهتفت مذعورةً:

- صحيح الكلام ده؟

وقفت صامتةً منزوعة السلاحِ أمام القهر الذكوري، خائفة أن تثب في وجهي، متهالكة روحي حد التعفن في انتظار وابلٍ من شتائم أمي ونصائحها، وبدلًا من أن تصفع أخي على وجهه، صفعتني أنا وكأنني ارتكبت أبشع الفجور وأفجرها، نعم كانت الكتابة تعني لأهلي جريمةً لا تغتفر، وكانوا يتصورونها ممارسةً صريحة للعهر، أختبئ متى قررت أن أمارسها خلف أبوابٍ مغلقةٍ عليَّ بإحكامٍ، وأحتفظ بقصاصاتي التي اهترأت بسبب نزف دماء قلمي، قلمي الذي اختنقت حنجرته فأصبح عاجزًا عن الكلام، أحتفظ بقصاصاتي تلك التي سطرتها بأشعارٍ وخواطر داخل صندوقٍ متهالكٍ لا أحدَ يقترب منه إلَّا نادرًا، كل شيءٍ في بيتنا محرمٌ على الأنثى، عدا تنظيف البيت وطهي الطعام بعنايةٍ لأشقائي الذكور، مَضَى أخي حياته يعيش في رفاهيةٍ كقائد جيشٍ، وأعيش أنا حياتي أسيرةً لعاداتٍ وتقاليد منذ وأد الإناث، كان أخي يشغل أغلب يومه في البحث بين صفحات كتب الدين حتى يظفر بنصٍّ يتخذه سلاحًا ضديًّا، يلتهمه بسعادة بجانب طبقٍ شهيٍّ من الحكم والأمثال الشعبية المتهالكة التي شأنها أن تقلل وتبيد كل حقوق المرأة وتطمس حتى مشاعرها وكرامتها وتسلب حريتها وتجعل منها صورةً مكررة ذليلة، فريسة في كنف الكروموسومات الهرمونية للخصائص الذكورية

الثابتة، وإنه ليومٌ عصيبٌ حين يجمع أخي أبي وأمي مُسْتَغِلًّا هو فقرهم العلمي، ويبدأ في أن يتلو عليهم ما أمر به الله مُسْتَغِلًّا نصوصًا سطرتها عقولٌ خَرْفاء رعناء متوحشة، ويختتم خطبته معترضًا على صوتي الرقيق الذي لا دخل لي به، مؤكدًا أنه عورة وقد وجب تبديله لزمجرة كلبٍ متوحشٍ حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض، وينهي حديثه بعبارات شأنها شأن جملة واحدة وهي "يستحب إبادة المرأة كي يعيش الرجل بلا ذنوبٍ"، ما يهم أن يعيش هو كما يحب أن يعيش.

تستمع له أمي في خشوعٍ، وتتشيد بمقلة عينيها الدموع وتود لو أن ينزل الله عليها وحيًا من السماءِ يأمرها بذبح كل أنثى، فخطبة أخي كان تأثيرها بمثابة تعويذةٍ سحرية لكهنة "غريوحب" وحين ينتهي يدير رأسه نحوي ويخرج لسانه مع ابتسامة استهزاءٍ متكبرةٍ، ويومض لي بعينيه بارتياحٍ مبتذل، في انتصارٍ لكلام الله ورسوله، ناصرًا الله لذكورته، أخي الذي لم يبلغ من العمر سوى ثمانية عشر عامًا حينها تشتعل بداخلي حرب ساحقة، فهو يعلم أنني متمردة، عزيزة النفس ولا أقبل استعبادي باسم الدين أو العادات والتقاليد التي تغرس خناجرها دون رحمةٍ في صدري، أكره أن أحيا وأموت ذليلةً لتربيةٍ ملأت عقول الذكور بأنهم ذوو سلطة وسلطان، ولوهلةٍ كانت كثيرًا تستيقظ في مخيلتي صورةٌ وهمية أخلع فيها أعضائي التناسلية وأستبدلها بأعضاءٍ ذكورية، أقص شعري مثل التي يعتنقها الذكور، وأحتفظ بخصلةٍ منه لكي أصنع لحيةً أرتديها في النهار وأخلعها في الليل دون الحاجةِ لأن أعرض وجهي لمناجل الشفرات الحادة، أمشي بظهرٍ مفرودٍ غير مقوسٍ دون أن ينتابني

الشعور بالخجل من بروز نَهْدِي، أقتلع صوتي الناعم وأستبدله بصوتٍ رخيمٍ غاضبٍ دائمًا كي يعطيني هيبةً، وتتفاقم الرجولة وتهابني التاء في زهور التأبين، أن أفتح الزر الأخير من قميصي اللاكوست دون أن أهاب تمساحَه، أن أمشي بشموخٍ وحريةٍ دون أن أتعثر في شباك عناكب الليل، أن أصبَّ في أناملي المرتعشةِ الصلابةَ فتسحق الخوف كما يسحق الرجال أعقاب السجائر. إلى أن كبرت وما عدت ألوم أخي، كيف لي أن ألوم عقلًا يُولد فارغًا بريئًا فلا يتركونه إلَّا وهو مُطْمَسٌ مدنس بالمسيوجينية، حتى النساء يكرهون الإناث فِطْرِيًّا، يتفاخرن إذا أنجبن ذكورًا ويتذمرن إذا أنجبن إناثًا، ولا يمكنهن أن يكتفين بعشر إناثٍ لهن، لكن يمكنهن أن يكتفين بابنٍ واحدٍ، يرون أنفسهن لا يكتملن دون ذكرٍ سواء كان ابنًا أو أخًا أو زوجًا، فيربين بناتهن على أن طاعتهن وخضوعهن واجبٌ مقدس وحق شرعي للرجل تمتاز به كل أنثى شريفة عن سواها من الفاسدات الثائرات المطالبات بأدنى حقوقهن في معيشةٍ كريمة، نزعني صوت أمي من شرودي بعد أن خمدت حدة الشجار مع أخي قائلةً بنبرة أمرٍ:

- نبض.. يلا غيري هدومك وتعالي عشان ترتبي معايا غرفة الضيوف.

انجرفت نحو غرفتي واليأس يتغلغل إلى قلبي فيمزقه ويسحقه كما تسحَق الرِّيحُ الأَرْضَ، تشدق صوت أخي قائلًا بنبرة استهزاءٍ:

- يلا .. هنخلص منك قريب.

جملةٌ كتلك حسمت الأمر وأوضحت أن القادم لزيارتنا عريسٌ

أنتظر ذلك اليوم منذ ولادتي، منذ أن توهمت أنه اليوم الذي يأتي محتفلًا بتحريري من قيود أسرتي، اليوم الذي سيكون ملاذي الأول والأخير للنجاة، اليوم الذي سوف ينتزعني من هلاكي، اليوم الذي سيشارك فتنة الكتابة نجاتي، الكتابة التي تسكنني كمتشردٍ لا مأوى له غير ذلك الجسد الميت، لنتقاسم لحظات الفرح اليتيمة ونقطف ضحكات النوارس البعيدة. جاء المساء في تلك الليلة غير كل الأُمْسيات التي تأتي بهدوءٍ كرفيقٍ حين أنفرد بوحدتي فتتعانق باشتياقٍ، الليلة جاء خانقًا، وضاق بي ذرعًا، طلبت أمي أن أقوم بتجهيز نفسي لأغدو في أبهى حلة كي أقدم للضيف القهوة، توجهت إلى المطبخ، وقفت أمي غارقةً في فكرٍ حزينٍ، وتبرز عقدةً من بين حاجبيها بوضوحٍ، تخفي اعتراضًا مجهولًا، وتقف شقيقتي ترقص على ثغرها ابتسامةٌ لا تخلو من الشماتة. ناولتني صينية القهوة وهي تتمتم:

- ميقعش إلَّا الشاطر، وانتي افتريتي أوي على خطيبك السابق.

خطيبي السابق! ما الذي يذكرها به في يومٍ كهذا؟ تجاهلت تمتمتها وتبعت والدي إلى غرفة الضيافة بخطواتٍ ثقيلة، حابسةً أنفاسي، تريثت مجفلةً بعد أن أدركت ماذا كانت تعني أختي بكلماتها على قياس طموحها هي، رجلٌ في العقد الخامس من العمر، يرتدي بذلة أنيقة وساعة paetek rhilippe nautilus على كل حالٍ لم يكن العمر ووسامة الرجل هي الأسباب التي تجعلني أقرر مصيري في الزواج مثل شقيقتي وباقي الفتيات السخيفات اللاتي ينجذبن إلى الهيئة الخارجية، لم أنجرف يومًا خلف أي شيءٍ نسبيٍ، بل كان دائمًا هناك شيءٌ بداخلي

يحركني نحو أَشْيَاء أخرى لا يمكن أبدًا أن تكون ظاهرةً، تقبع داخل أعماق الروح، وحين انتهيت من تقديم القهوة، طلب أبي مني أن أجلس، جلست مرتعبةً من نظرات الرجل لي، فقد كانت تشبه نفس النظرات التي حدجني بها «طارق» في لقائي الأول به، كان هناك ثمة شيءٌ مشترك فيها، كانت نظرةً لرجلٍ تفاجأ وعثر على ضالته، بل ارتعدت ملامحه من الدهشة وراحَ الفرح والسرور يدغدغ تلك الدهشة، وكأنني عدت إليه من الموت بعد أن فقدني للأبد، تضاءلت ملامح السرور على وجهه رُوَيْدًا رُوَيْدًا وكأنه تذكر شيئًا ثمينًا، اختلج بداخله اختلاجة الموت الأبدي، فأصاب نفسَه هاجسٌ رهيف بأنه لا قدرة له على أن يمنحه لي، فحاول استبداله بحديثٍ فاترٍ حول ثروته وذكائه وحسن خلقه الذي يستمده من خلق الأنبياء، حدثني ذلك وهو يتلقفني بنظراته الثاقبة التي كادت أن تخترق ثيابي وتمسح كل سنتيمتر من جسدي، وأنهى حديثة بأنه سيراعي ما وجب مراعاته من ودٍّ ومحبةٍ ومعاملةٍ حسنة لا تشوبها شائبة للمرأة التي ستظفر به، علاوةً على ذلك العيشة الأرستقراطية التي سيوفرها لها داخل دولةٍ أوروبية يعمل بها، سألني الرجل قائلًا باهتمام:

- ها يا «نبض» قولتي إيه؟ أنا حابب أسمع رأيك.

ماتت كل الإجابات في حلقي، فأنا عاجزةٌ على أن آخذ قرارًا بمفردي، لم يسمح لي أهلي يومًا أن أقرر حتى اختيار اللون المفضل لحذائي، لفحني الضيق وغرس الخوف في صدري أنيابه الدامية، نظرت إلى أبي، إلى أخي نظرة توسلٍ، انتظرت أحدهم أن يبدي رأيه بالموافقة أو

الرفض، لكنهما خذلاني لأول مرةٍ في حسم قضيةٍ اعتادوا عليها، واعتدت أن أجيبهم بالسمع والطاعة، كرر الرجل سؤاله مرةً أخرى وبطريقةٍ مختلفة.

- أنا هعيشك في جنة، وأي حاجة تحلمي بيها هحققهالك.

أيقظت كل النصوص التي مرت عليَّ في كتب أخي، والتي ترسبت داخل قاع عقلي لعلي ألمح نَصًّا أو عبارةً تجيبه نيابةً عني، أو حتى طرف كلمةٍ يتعكز عليها القدر والنصيب يومًا ما، لكن طُمِسَ كل شيءٍ أمامي.

أزحت غطاء رأس أمي وفتشت بين جدائلها التي احتلها الشيب واستحوذ عليها بسيطرةٍ كاملة، جدائلها التي تقول إن ما مرَّ عليها من تَجَارِب وقصصٍ كافٍ لأن يرتب حياة ألف إنسانٍ، خدشت سيوف تعاليم ونصائح أبي بخنصري الأخير، بحثت بعبثٍ وجنونٍ بين شقوق تجاعيد حكم وأمثال جدتي، مزقت كل الزهور الجافة التي كنت أضعها كَفَوَاصِل بين كتاباتي، الكتابات التي كانت دائمًا ما تسبب لأهلي النفور والغثيان، نزعت الريش المختلف عن جسد عصفورٍ يحتضر من الظمأ فوق سطحٍ من الجليد داخل لوحةٍ رسمتها ثم قمت بإخفائها عن عيون غربان قريتي الجائعة، وبعد أن فتشت في كل تلك الأشياء واستبحت آخر قطرةٍ بأنفاسي غرقت كما تغرق الشمس في البحر وقت الغروب، وتركت المجلس دون إجابة.

مضى خمسة عشر يومًا بذل الرجل فيهما كل جهده لمحاولة إقناعي بالموافقة، يصر إصرارًا عجيبًا على الزواج مني، أمَّا أبي فيراه على خلقٍ، وأخي يقول: "إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه"، وتحسم جدتي الأمر قائلةً: "الرجل لا يعيبه سوى جيبه"، ورغم أن تلك العبارة مضى عليها زمن كافٍ لتنقرض، إلَّا أنه أنسب وقتٍ لازدهارها هو هذا الزمان، أمَّا أنا فما زلت مترددةً، خائفةً، أحترق على نار شمعةٍ هزيلةٍ وأزيغ من أمعائها المحترقة ندوب بصري وبصيرتي. وفي صباح اليوم السادس عشر استيقظت على صوتٍ رجلٍ يتمتم بكلماتٍ لا أفهم منها سوى "افتح الكتاب"، فتحت نافذة غرفتي ونظرت من خلالها إليه، كان يقف بالقرب من بيتنا رجلٌ في العقد السابع من عمره يرتدي ثيابًا شاحبةً، كئيبةً، ويمسك بمجلدٍ صغيرٍ يشبه نوتةً صغيرة، أوراقه مهترئة، ممزقة وقد لفَّها بخيطٍ من الكتان الأصفر، يمسك ذلك المجلد بيديه المقنعتين اللتين تشبهان يَدَي ابن المقفع صاحب كتاب "الأدب الكبير"، خرج له أبي وأجلسه على الأريكة الناعسة أمام بيتنا، قدَّم له الطعام والشراب كعادتِه مع كل عابر سبيلٍ أو بائعٍ متجولٍ يحالفه الحظ أن يدخل شارعنا، بل وكان في كثيرٍ من الأحيان ينتظر مرورهم في شارعٍ آخر لكي يطعمهم ويكرمهم، جاء أخي ليخبرنا أن ذلك الرجل لديه القدرة على أن يتنبأ بالمستقبل، نهته أمي على ألَّا يثق في المنجمين، لَوَى عنق الحديث وأخبرنا أنه سيتخذ الأمر للتسلية والفضول فقط، تبادلنا الأسئلة والآراء بيننا، وسألت أنا عما سيتقاضاه على كل فردٍ سيكشف له عن مستقبله.

- عشرة جنيهاتٍ فقط.

* ماذا تقول؟ عشرة جنيهاتٍ! لدينا في بيتنا ستة أفرادٍ، والجميع لديه فضول قاتل لكي يسمع ما سيتنبأ به عن مستقبله.

اعترضت أمي قائلةً بغضبٍ:

- عُودي، كذب المنجمون ولو صدقوا.

قلت أعتقد أنه يمتهن تلك المهنة للثراء بدلًا من التسول وسيجنون من قريتنا فقط مبلغًا وقدره، فما أكثر النساء اللاتي سيقنعهن أن السبب في جميع مشاكلهن هو السحر، وسيتوسلون إليه لكي يبطله مقابل ما يريد من المال، نعم رجلٌ كهذا يمكنه إقناعك بالخزعبلات بكل سهولةٍ، عدا أمي التي علمتني ألا أثق في الكلمات التي يتشدق بها المنجمون. الآن يحين دوري، يفتح مجلده ببطءٍ وينظر فيه بتمعنٍ، يبادلني نظراتٍ مقتضبة، ثم يحرجني بنظرةٍ مخيفةٍ ترتعد أوصالي لها، ويرتجف قلبي ثم يتحدث قائلًا:

- هناك زيجةٌ تخافين من إتمامها، لماذا؟

أحدث نفسي قائلةً باستهزاءٍ.

- الذي أخبرك بالزيجة، اجعله يخبرك بباقي الأمر.

* سيكون من نصيبك لا محالة.

- وماذا لو جعلتك من الكاذبين.

عاد ينظر إلى مجلده، بدت عليه الدهشة والتأثر بأمرٍ حزينٍ، وكأنه قرأ خبر تحطيم بيته بمن فيه، وجحظت عيناه وهو يقول:

* هتقابلي أمانة في طريقك صعبة، فأدِ الأمانة لأصحابها.

كرر كلمة أصحابها عدة مراتٍ، لم أهتم لأن أفهم شيئًا عنها أو أسأل من هم أصحابها الذين تعمد تكرار الكلمة لأجلهم هكذا، اعتبرت أنه يردد كلامًا غير مجدٍ، مجرد خزعبلات لا صحة لها، انتهت تنبؤاته وذهب إلى مصيره، وتجمعنا كأسرةٍ حول مائدة الطعام نسخر من تنبؤاته ونضحك باستهزاء، ثم أسأل أمي عن سبب كرهها للمنجمين وعدم تصديقهم، تبادلني بسؤالٍ إجابةً على سؤالي، وتسأل قائلة:

- هل تذكرين عندما كان عمرك خمسة أو ستة سنوات؟

أجيب أمي في خبثٍ:

* لا أذكر أي شيءٍ.

تحكي أمي قائلةً:

- بدأت معاناتك مع تخيلاتٍ غريبةٍ حتى ظننا أنه أصابك مس شيطاني، كنتي بتقولي أن مسمكيش «نبض»، وأن اسمك بسمة وعايشه في بيت جميل وليه حديقة كبيرة مليانة ياسمين أبيض وتفاصيل كتير، زي أنك اتقتلتي بسبب أنك اكتشفتي سر خطير، وأنك رفضتي تسكتي، وأن ليكي أسرة تانية وحياة غيرنا ومتجوزة.

تضحك أمي وتتابع:

- من يومك خيالك واسع أوي.

يضيف أخي بلهجةٍ ساخرة:

- الحمد لله أنها اتعالجت وإلَّا كان زمانها بتحاول تقنعنا أنها الملكة حتشبسوت، وبتحكيلنا عن دورها في معركة إدلب.

يخرج أخي الكبير عن صمته قائلًا:

- إدلب مين يا متخلف يا جاهل، إيه علاقة معركة إدلب بحتشبسوت؟

يسود المائدة جوٌّ من المرح والمزاح، ينتابني شعورٌ بالخجلِ بسبب كلام أسرتي رغمًا عني، كلامهم يوقظ بعقلي التخيلات التيَ كانت تلازمني في طفولتي، أستيقظ في صباح يومٍ وأنا أصرخ بفزع وخوفٍ حارقٍ، أهرع إلى غرفة أمي وأبي وجسديَ يرتعد ويختلج، صراخي يوقظ كل أسرتي، يركضون إلى الغرفة التي تبعتها، يقف الجميع متشوقًا بحماسٍ لأن أكشف عن سبب صراخي وهلعي بتلهفٍ كبيرٍ، الجميع يسأل عمَّا حدث بدهشةٍ وهم يتبادلون النظرات والهمسات، تجلسني أمي فوق قدميها وتداعب شعري، تلمس وجهي المثلج المبلل بالدموع وتطلب مني أن أحكي ما حدث، وعندما أبدأ بالكلام يلوح اثنان من أشقائي بأيديهم ويعودون إلى فراشهم فلم يجدوا شيئًا جديدًا يلهمهم، حيث اعتادوا على سماع القصص نفسها مني، أمَّا أنا تتضارب دمائي بصدغي كأمواج مياهٍ وترتجف شفتاي وتتشنج ملامحي، وأكمل والدمع ينهال من عينيَّ:

- هما قتلوني عشان اكتشفتهم، بس ليه يشاركهم قتلي، ليه يشاركهم قتلي؟ ليه؟

تضمني أمي بقوةٍ إلى صدرها وتقول بأسًى:

- مين اللي شاركهم قتلك يا حبيبتي؟ أنتي لسه عايشة يا نبض.

أحاول أن أبتعد من بين ذراعيها وأنظر بغيظٍ في عينيها وأنا أقول:

- مسمييش «نبض» اسمي بسمة.

تدفعني أمي بعنفٍ لكي تبعدني عنها وتنهض وهي تصرخ قائلةً بعصبيةٍ:

- لازم نعرضها على طبيب نفسي.

وبعد الظهيرة من يوم ثلاثاء تقودني أمي مع أبي إلى إحدى عيادات الطب النفسي. نمكث في صالة الاستقبال تنهشني اللحظات الفارغة التي تقيدني في معمعة الانتظار، يجلس أبي متذمرًا وكأنه يكابد عبئًا ثقيلًا، ينظر لأمي بلومٍ ويقول بنبرةٍ تعسةٍ:

- الشيخ عطية قال إن اللي عندها ده مس شيطاني مش فاهم إيه إصرارك أنك عايزة تطلعي البنت مجنونة وخلاص.

تجيبه أمي بعصبيةٍ:

- الشيخ عطية اللي من وهي عندها ٣ سنين بيحاول يقنعنا أنه مس شيطاني وكل ما ده والتخيلات بتزيد ولما هو مس معالجهوش ليه؟

أحدج أمي وهى تتكلم بنظرةٍ طويلةٍ، أجد عينيها متعكرتين والتعب يسيل منهما وأعاود النظر إلى أبي، أجد وجهه شاحبًا، عابسًا، لا ألمح في قسمات وجوههم أي ملمحٍ للسعادة، أختلس النظرات إلى كل الوجوه الماكثة معنا في صالة الانتظار، تلك الوجوه التي تحاول مسح

ذرات الملح بقلقٍ، والتي تتأجج فوق سحناتهم المرصفة كأكفانٍ بيضاءٍ ملتفةٍ بأرواحهم التي ما زالت تصارع من أجل الحياة، تجلس امرأةٌ شاردة الفكر، شفتاها مكفهرةٌ وجافة تحاول تنديتهم بلسانها، لسانها جافٌ، أتقدم وأعطيها زجاجة المياه دون أن تطلب مني، زجاجة المياه التي حرصنا على أن نحضرها معنا طوال الطريق، تبتسم لي بسعادةٍ وترتشف رشفةً صغيرةً، تنظر لي بودٍ وهي تتخيل أن الطبيب سيمنحها وصفة شفاءٍ سرية، فتغمرها فرحةٌ تضيء في عينيها، تسألني "ما اسمك؟"، وقبل أن أجيبها تأتي الممرضة وتقودنا إلى غرفة الكشف، أتبع أبي وأمي بخطواتٍ متباطئةٍ، نجلس في صمتٍ فوق أريكةٍ مبطنةٍ بجلدٍ بنيٍّ لامعٍ كلمعان فرو حيوان الكوجر تحت أشعة الشمس، يجلس الطبيب بوجهٍ معقدٍ كتعقيدِ معضلةٍ رياضيةٍ، ينسج ابتسامةً مغتصبةً ملَّ منها ليخفي بها تشنجه ثم يسأل: "ما المشكلة؟"

تجيب أمي في تعجلٍ وتبدأ تقص عليه كل التخيلات- كما تسميها- التي رافقتني منذ أن كان عمري ثلاث سنوات، يبدأ الطبيب يتجاذب معي أطراف الحديث، أنظر إليه بتأنٍ وأهز رأسي نفيًا عن كل أسئلته التي يوجهها لي، وبعد نصف ساعةٍ يمكث صامتًا محتارًا أمام تشخيص طفلةٍ مثلي لم تتعدَ الست سنوات، يهتدي أخيرًا لأن يقول حين يسأله أبي عن التشخيص:

- يبدو أنها تعاني من انفصامٍ في الشخصية.

توقظني أمي من طفولتي التي شردت فيها قائلةً:

- لسة بردو بتفكري، الراجل هيتجنن عليكي وشكله شاريكي أوي.

* ما هو دة اللي أنا محتارة فيه، ليه مُصر عليا الإصرار ده كله؟

يقول أخي مازحًا:

- أنا مش قادر أفهم إيه اللي عاجبه فيكي والله، دورغام ده شكل أمه مشبعاه أدعية عشان بعد العمر ده كله يقع في واحدة زيك.

انقضى النهار وهبط الليل ليبتلع ضجيج القرية، ويستبدله بهدوءٍ كهدوء المقابر، اختليت في غرفتي بوحدتي، استلقيت فوق السرير لاستجداء النومِ، وكلما شعرت بثقلِ أجفاني زعق غراب وكأنه نذيرٌ يحذرني من أن أغفو، لم أعتَد على أصوات نعيق الغربان في الليل، فمنذ أن أخبرتني جدتي في طفولتي أن نعيقهم نذيرٌ بالموت والشؤم وأنا لا أحب أصواتهم، فأصواتهم دائمًا تبث بداخلي رهبةً وتشعرني بالكآبة، فكنت عند سماع غرابٍ ينوح أرتعد وكأن لعنةً أحلت على الدنيا، ويتملكني شعورٌ بالفزع والقلق، لم يكن الموت حينها يعني لي الكثير، فلم أكن أبلغ من العمر سوى ثمان سنوات، لم أرتكب أية خطيئةٍ أو ذنبٍ أحمق، ولم تترسخ بعقلي كل تلك الأفكار والأساطير التي تطارد عالم الكبار، لكن في كل مرةٍ أسمع نعيق غرابٍ يدب الخوف خناجره في صدري. أبي وأمي وجدتي أول من يضيئون في عقلي، أركض نحو غرفة أبي وأمي الدافئة، أتسلل ببطءٍ إلى فراشهم، أضع أذني على قلبيهما، أما زال ينبض؟ نعم وما زالت وتيرة تنفسهما منتظمةً رتيبةً، وجدتي؟ كذلك أيضًا.

اللعنة! يبدو أنه غرابٌ كاذبٌ يرغب في إخافتي، ويريد المزاح معي لا أكثر. يهدأ قلبي من خفقاته لعلي أستعيد قدرتي على التنفس بشكلٍ منتظمٍ، ثم أسجد لله شكرًا وأصلي أحد عشرة ركعةً شكرًا لله، كنت أظنّ أن الموت لا يصيب سوى الكهول ويتهاوى تدريجيًا ولا يتجرأ أن يقترب نحو الأطفال والشباب، الآن أفتقد تلك البراءة بعدما أدركت أن الموت ليس عادلًا، فيقتص ممن يشاء متى شاء، فيمكنه أن يتغاضى عن البعض حتى أرذل العمر أو أن يطحن باقي الأعمار تحت عجلاته الشريرة دون أن يكترث أو يشفق على أحدٍ، لو أن الموت يخلو من تلك الطريقة التي يكفنون بها الجسد ليتحول إلى لفيفةٍ بيضاء ويوقفون دفنه داخل القبور لربما تقبلته، آآآه ما أقسى ذلك! ما أقسى ذلك! توجهت إلى النافذة لألقي نظرةً على ما يحدث في الخارج، لا شيء سوى الظلام الذي يكتنف القرية وينسج خيوطه فوق بيوتها بلزوجةٍ، صمتٌ ثقيلٌ لا يكسره سوى حفيف أوراق شجرة صفصافٍ نمت على حافة الترعة وحيدةً حزينة بحجم حزن الشجرة التي تصدعت لتخبئ يحيا بن زكريا، فشقوها شقًّا، ثمة نخلات شامخاتٍ تهتز أطرافهن كثوبٍ متوارٍ في فراغ، نوافذ المنازل مظلمة وأبوابها مغلقة، أمد بصري إلى شارعٍ عتيق تصطف على جانبيه ثلاثة بيوتٍ تطفو فوق واجهاتهم رغوة كرغوة زبد البحر، وتتوسطهم طاحونة كهربائية، سقفها مصنوعٌ من القش الهش ويتكوم فوقه غبار دقيق الأغلال كثلجٍ أمطرته السماء، السماء ملبدةٌ بالسحب الثائرة كجنودٍ تتجهز لخوض حربٍ ساحقةٍ، أمَّا الغربان كانت قد تركت أعشاشها وصغارها وراحت تدور حول مياه الترعة وهي تنعق

وكأنها أناسٌ يستعدون لحمل نعشٍ، لا شيء في تلك الليلة كان يبدو معتادًا، إنها تشبه كثيرًا الليلة التي قتل فيها القيصر.

أغلقت النافذة وأنا أرتعد بردًا وتصطك أسناني، عدت إلى فراشي، تلحفت الغطاء، وانتظرت ريثما تزول الرعشة، غفوت بعدها وحلمت، حلمت أن ذلك الرجل هو زوجي وأنني أعيش حياةً سعيدةً هنيئةً، حياةً أقل ما يقال عنها أنها رغيدة وغير اعتيادية، نشرب النخب دون أي مذاقٍ للعطب وننام على وسائدٍ سحريةٍ وفي كنفه أضاءت لي النياسين وأمطرت الغيمات السعادةَ ببذخٍ، استيقظت وأنا أشعر بالأمان الذي يتسرب لأول مرةٍ في دمي، متلهفةً إلى ذلك الرجل بلهفة عاشقٍ ذبحت حنجرته من كثرة النداء على عشيقه، وقد نَمَتْ على قلبي قناديلٌ مضيئة، وعلى حواسي قشعريراتٍ من فرط السعادة، فانتشى عمري، ما أقدس ذلك الشعور الذي منحه لي هذا الحلم وما أنبله! أيها الرجل العظيم جدًّا، يبدو أنك النقطة الوحيدة التي ستضيء روحي، يبدو أنك الرجل الذي سيستبدل بَهَارات الرجولة والفحولة الشرقية المتوارثة بحبات السكر اللذيذة، يبدو أنك هدية السماء، يا رب الكون أعنِّي وامنحني القدرة على إسعادِه.

أقمنا حفلًا بسيطًا بمنزلنا لإعلان خطبتي محفوفًا بالأقارب والأصدقاء المقربين، بدأ الحفل في وقتٍ مبكرٍ من المساء، صعدت إلى غرفتي كي أتجهز لاستقبال المباركين والمهنئين وبمرافقة صديقتي «أميمة»، وضعت أحمر الشفاه لأول مرةٍ دون أن أخشى تعليقات أمي ونصائحها التي لا تكل منها ولا تمل، فهي حريصةٌ على ألَّا تجعلني أبدي أي زينةٍ

قبل يوم زفافي، مثلها مثل كل نساء قريتي اللاتي تحرصن على عدم تعويد بناتهن على هذا الأمر، وأسدلت شعري تاركةً له الحرية فانساب فوق ظهري بارتياحٍ، وكان يتطاير فرحًا كلما اقتحمته نسمة رياحٍ، ارتديت فستانًا تعمدت تقصيره دون أن أخشى عقاب أبي أو صفعة من أخي على وجهى، خرجت من غرفتي على هذا النحو لأول مرةٍ دون أن أخشى لومة لائمٍ أو أخجل من مظهري الذي لم أعتَد عليه، تأبطت ذراعي صديقتي «أميمة» التي قدمتني للمعازيم وأهل العريس قائلةً بسرور:

- العروسة.

بدأت أعينهم تتلقفني ككرة سلةٍ في أيادي لاعبين بلياردو فاشلين، تخترقني نظراتهم وهي تلعنني وتسقط السماء فوقي سخطًا وغضبًا عليَّ وعلى من سمح لي أن أكشف شعري وساقي، نهضت شقيقته الأكبر عمرًا ودارت حولي وهي تتفحصني ثم تساءلت في دهشةٍ قائلةً:

- الطفلة دي هي العروسة؟

ثم ضربت على صدرها بكف يدها كمدًا وحسرةً على شقيقها، أفسدت نظراتهم وأفعالهم ما اقتنعت به، بل شعرت وكأنهم تحولوا لجيوشٍ من النمل الذي راح ينخر عظام جمجمتي دون رحمةٍ، ما أصعب أن تعيش في مجتمعٍ يفرض عليك كل شيءٍ بمقاييس رغباته هو لا رغباتك أنت! فماذا يعني للناس أن أتزوج كهلًا كنتَ أو شابًا! ثريًّا أو فقيرًا، رجل

سلطةٍ أو عاملٍ بسيط، لماذا ينشغل الناس عن أحوالهم من أجل أن ينشغلوا بأحوالِ غيرهم؟

لماذا هذا المجتمع وقحٌ لهذا الحد؟!

جاء يوم زفافنا الذي حرصت على أن يكون يومًا عاديًّا، قادني زوجي إلى منزله، انتهى الحفل واستتب بنا المقام داخل شقتنا، وقفت جامدةً أستقبل إحساسًا جديدًا صُدمت به، مدَّ زوجي ذراعه وطوَّق خصري في مشهدٍ سينمائيٍّ مبتذل، انتابني شعورٌ شديد الظلمة، شكل أسود شرع فجأةً يدور أمام عيني كدوامةٍ أرادت أن تبتلعني على حين غرةٍ، أشحت ذراعه باشمئزازٍ، نظر لي مبهوتًا، متحيرًا، مكفهرًا، وقد استغرق الأمر بضع ثوانٍ حتى أدرك أنه منبوذ، مطرود من الجنة، وبينما هو صامتٌ، متوغلٌ في فكرٍ مضطربٍ، تحفزت للخروج من غرفة النوم، فجذبني من ذراعي بعنفٍ وتطلع لي بنظراتٍ مشتعلةٍ كحريقٍ وسألني بصوت مختنق:

- أنتي مغصوبة عليا؟

أجبته بتمرد:

* أنا محدش يقدر يغصبني على حاجة.

- أومال تصرفك ده معناه إيه؟

* تصرف طبيعي لأني حاسة أني اتسرعت.

زادت السحب الحمراء في عينيه وركضت كبركانٍ ثائرٍ، قال متشنجًا بعصبية:

- والمطلوب؟

أدرت ظهري وتأففت منفعلةً، وأجبته في عصبية:

* مش طالبة أي حاجة غير أنك تكون في حالك وأنا في حالي. خطوت بسرعة نحو باب الغرفة وكأنني أفر من خطرٍ مريعٍ، إلَّا أنه خطا بغضبٍ وجذبني من ذراعي بعنفٍ، وصرخ بحنقٍ في وجهي:

- انتي إزاي تكلميني بالطريقة دي؟ أنتي متعلمتيش الأدب؟ انتفضت لسماع صراخٍ غمر كل شيءٍ أمامي ووقفت مخدرةً ولبثت منتظرةً ما يضيف من حديثٍ لكن لم أشعر سوى بيده تمتد وتنزع طرحة فستان الزفاف من فوق رأسي، وألقاها على الأرض بطريقةٍ جنونيةٍ، خاليةٍ من كل مشاعر الرحمة، تشنجت أعصابي وغمرتني مرارة بطعم الحنظل، اعترضت لكن اعتراضي جعله يتوغل في جنونٍ أبشع، دفعني فوق السرير ولفَّ كفيْهِ حول عنقي محاولًا خنقي، وصرخ بهستيريا:

- أنتي هنا جارية، أنتي هنا إيـــه؟ قولي جارية.

استبد بي خوفٌ لا يوصف، وعلى قرع طبول صوته شيع الفرح داخلي إلى مثواه الأخير، وزف السواد جنائزه ببشاعةٍ لا توصف داخل قبور قلبي، جسدي ممددٌ فوق سريرٍ خشبه مصنوعٌ من أجيج النار، ووسائده مصنوعةٌ من الماء الأجاج، وحنجرتي بدأت تتكسر بين يدي شبحٍ عملاقٍ، ومجرى التنفس أوشك على الانسداد، لكني أكره الموت.

- أنا جارية... جارية.

بهذا الاعتراف تخلصت من قبضة يديه، ومارس باقي ساديته بتلذذ.

مضت ثلاثة أشهرٍ على زواجنا، في فجر يومٍ جديد أستيقظ على صوت زوجي وهو يهز ذراعي بأطراف أنامله، رفعت جفني بثقلٍ كبير:

- «نبض» قومى جهزيلى شنطة هدومى ثم أردف، يلا عشان متأخرش.. لازم أكون في المطار قبل الساعة ٦ .

نهضت رغمًا عني لكنى ما زلت لم أستوعب عن ماذا يتحدث.

ارتدى قميص بذلته وراح يعقد الأزرار بارتباك أمام المرآة، سألته في نبرةٍ لا مبالية

- هو أنت مسافر النهاردة؟

أدار جسده نحوي وتطلع إليَّ قائلًا:

* أيوة يا «نبض» ودلوقتي، الشغل فيه مشكلة ولازم أسافر.

قلتُ في عتابٍ:

- طاب ليه معرفتنيش من قبلها، على الأقل بيوم يعني، تقرر وتحجز التذكرة وتصحيني عشان بس أجهزلك شنطة السفر!

* هيفرق إيه عندك لو عرفتك في كل الحالات كنت هسافر.

قال ذلك واستدار متوجهًا نحو خزنة صغيرة تشغل زاويةً داخل دولاب الملابس، قام بفتحها وإخراج جواز سفر له، ألقاه فوق سطح التسريحة، وأعاد النظر في المرآة إلى هيئته، انتهى من ربطة عنقه، استقبل مكالمةً هاتفيةً وتوجه إلى شرفة الغرفة كي يجيب عليها، وتبادل الحديث مع الطرف الآخر بصوت منخفض، كنت قد انتهيت من ترتيب

حقيبة ملابسه وحين كنت أمر من أمام التسريحة، وقع نظري على جواز السفر، التقطته وقبل أن أقوم بفتحه كان قد قطع المسافة من الشرفة إليَّ في خطوة واحدة وصاح محتدمًا، سحبه من بين أناملي.

* قولتلك كتير قبل كدة متحاوليش تفتشي في حاجات متخصكيش.

ثم أردف بعد أن زفر زفرةً تنفس من خلالها الصعداء.

* الحاجات البسيطة دي تخلي بالك منها كويس بعد كده عشان مهمة بالنسبالي.

كبحت غضبي وحاولت استعادة هيئة رصينة غير التي بدأت تنمو مع استنتاجات وشك جعلاني أنصهر، سافر زوجي، وتتفاقم الشعور بالاختناق داخل روحي، وتملكني أكثر وأكثر، أتساءل في حيرة من أمري، هل غدوت بلا أية قيمة وأصبحت أحلامي سرابًا؟

لماذا طوال الوقت أصبحت ألهث خلف أنفاسي وكأنها غاضبةٌ من؟ لماذا أشعر دائمًا بأنني مكبلةٌ في جبال تقبع في أعماق البحار؟ لماذا يتملكني الضجر وتنتزعني الحياة من بين أي طيف للأمل، حتى عقلي ينهار بسخافة، والكتابة التي كانت تعني لي إكسير الحياة، لماذا أصبحت لا أجيدها، وكأن كل مفرداتها تلاشت من عقلي؟ جلست أتأمل السماء في محاولة يائسة للنجاة، نظرت إليها بنفس الروح التي كانت كفيلةً أن تكتب قصيدةً لكل نجمة تغنيها الطيور المهاجرة مع أوقات الغروب، وتعزف لحنها الخيوط الذهبية للشمسِ. لكن الآن

تلك الروح المعذبة، لم تعد سوى نقطة سوداء ابتلعها الكون بوحشية، روح يقف فيها الزمن.

الطلاق، الطلاق هو الطريق الوحيد لاستعادة بهجتي، تردد ذلك الصوت بصخب داخل عقلي، أما زال عقلي يفكر؟ فهو لم يحتضر مثل باقي أعضائي ولم يلفظني كما ظننت، لكنه يفكر بجنون، فثلاثة أشهر زواج فقط ستجعل مني حديث نميمة شهي، ينخرط فيه أهل قريتي، فترجمني ألسنتهم بالحجارة في الأزقة والطرق، وأثناء احتساء الشاي داخل بيوتهم، وستوسمني نظراتهم وتوشمني بالعار، أين أجد ملجأ من عذاب نفسي وتمزق وجداني، أقف خائرةَ القوى وكل سبل النجاة أغلقت أبوابها في وجهي، الأفكار تدور في عقلي كمطرقة عملاقة تهوى فوقه كل ثانية، أدور حول بؤسي كدبابير استيقظت من منبت شعري، وبدأت في نخر جمجمتي، وصوت صراخ لطفلة لا أفهم لغتها يتفاقم إلى حلقي، لقد بلغ اليأس منتهاه!

أحتاج إلى يدٍ تمتد لي وتنتشلني من عذابي، وإذا لم أخلق تلك اليد بنفسي فلا يحق لي أن أنتظر من الله أن يوجدها، فلن أبلغ منزلة مريم لديه، ولن يصطفيني كما اصطفاها، ولم أحمل نبيًّا داخل أحشائي، إذ يقول لها: وهزي إليكِ بجذع النخلة، فإن لم تهزي بيدك لا تنتظري أن تتساقط عليك رطبًا جنيًّا، ومضت بعقلي فكرةٌ ستبدد كنف ظلام وضجر أيامي، على أن أساوم زوجي إمَّا الطلاق إمَّا أن يفتح لي طريقًا مخضرًا، فبالرغم من شخصيته المضطربة إلَّا أنني بالنسبة له فرصة ذهبية لا تعوض فلا شيء يقدسه في المرأة أفضل من السذاجة، وقد أبدو

له قد بلغت من السذاجة ما يعصمني من الذنوب ويأمنني من العقاب، قطة عمياء كما يطلق عليَّ، لكن ماذا إذا تعملقت تلك القطة وصارت نمرًا؟

عاد زوجي وكنت قد التحقت بعامي الدراسي الثاني، وذات يوم أرسل إلينا صديقه دعوةً للعشاء، استقبلتني صديقته «هدى» بالقبلات والتحيات وأثناء جلوسنا نتبادل الحوار تعثر طفلهما ذو العامين وهام في البكاء، هرعت «هدى» نحوه وانتشلته بين ذراعيها بقلق كما لو أصابته رَصاصة، وركضت به نحو غرفة نومه، وهي تقرأ المعوذتين، مصوبةً نحوي نظرةً حادة توحي بالاتهام، وفي الحقيقة لا أعلم أي اتهام كان يدور في خاطرها، لكن على كل حال هي تعلم أنه مضى على زواجنا أكثر من عامين ولم نرزق بطفل، سرت بوجهي حرقة بارقة ولاذعة، تركت المكان وعدت إلى بيتنا وقلبي ممزقٌ، مقسوم نصفين، نصفٌ أرهقه التعب ولم يعد يرغب في الحياة فسقط وتهشم تحت خطى قدميَّ الحثيثة، والنصف الآخر ينبض بتوتر وألم بلغ حدة السيف، بدأت محاكم الأقارب والأصدقاء والجيران وكل المجتمع تنتصب لتتجسد آلامي الحقيقية على أعتابها وتصبح، آلامي الماضية وهمًا، بدأ الجميع يعلن أن الحياة الزوجية دون أطفال حياة فاشلة بلا أية قيمة ولا تستحق حتى الاحترام، الجميع يرى أن الأنثى مهما بلغت أعلى مراتب العلم لا يكتمل عقلها ولا أنوثتها إلا بالأمومة، كل النساء اللاتي التقيت بهن يسارعن لإثبات كمالهن الإنساني في حملهن للقب أمهات، تذكرني أمي أينما رأتني أن العمر يتقدم في خلسة، تحذرني حيث لا ينفع ندم،

وتتنبأ لي بالأمراض التي ستصيبني عندما أصل إلى سن اليأس، حينها سأكون بحاجة إلى ابن يعينني ويعتني بي، وكأنها ضمنت لي كل هذا، فضلًا عن مكافأةِ الأمهات بالجنة، هذه ليس حقيقة، كم من أمهات ماتت من كثرة انتظارهن لأبنائهن الذين هجروهم؟ وكم منهن ماتت لعدم توافر دوائها لأن كل النقود التي تمتلكها ادخرتها مخافةَ أن يمرض ابنها؟ وكم منهن ماتت داخل دار للمسنين بسبب حرقة قلبها بعدما فضل ابنها زوجته عليها؟ وكم وكم يا أمي، أريني.. هل إن أنجبت طفلًا سأنال الخلود أو أنعم بالطمأنينة المطلقة؟ والمضحك والدة زوجي التي لا تريدني أن أنجب إناثًا لأنها تكره الإناث، وتذكرني زوجة شقيق زوجي بمكر وخبث أينما رأتني أن كل ما يملكه زوجي هو لها ولأولادها، وأن النساء في تلك القرية لا يرثن حتى حقوقهن.

أمَّا الحقيقة أنني لا أريد أن أنجب طفلًا على الإطلاق، ليعيش بين أكناف ذلك المجتمع العقيم ويسحق تحت رحاه، إنني أتفق مع أرسطو في أن أفضل شيء بالنسبة للبشرية ألَّا يولدوا وألَّا يكونوا في هذا العالم، لماذا أنجب إذا كان الجميع سيتذوق الآلام ويموت في نهاية المطاف، حتى العاطفة التي تجتاحني لتقبيل الأطفال ولمس كفوفهم الصغيرة لا تعني رغبتي في الأمومة، إنما هي من منطلق الشراهة أو أنني طفلة.

****

انتقلت مع زوجي إلى القاهرة ومكثنا في شقة فخمة بإحدى الأماكن الراقية، مضت سبعة شهور لم تتخللهم أحداثٌ غير اعتيادية، إمَّا تلقيت ظرفًا فيه دعوةٌ لحفل زفاف مزخرف بالتهاني والمباركات وزينت أسماء العروسين بالزهور الحمراء "الآنسة نانسي والمهندس علي"، سلمته لزوجي عند وصوله من الخارج، نظر إليه نظرةً عابرة ثم ألقاه فوق المنضدة وهو يقول.

- آه دي نانسي بنت خالتي.

توجه إلى غرفة النوم بخطوات مرتبكة، فتبعته وأنا أوجه إليه اللوم بشكل ودي، كيف لديه خالة ولم يحدثني عنها أو يعرفني عليها طيلة سنوات زواجنا، فلم يحفل أن يبادلني الحديث وقد كان مشتت الفكرِ، يبحث عن شيء بعصبية، سألته:

- أنت بتدور على حاجة؟

* إيصال مش فاكر سبته فين.

عبث في أدراج كل الغرفة وقذف محتوياتها على الأرض بحنق، وعبث فوق محتويات سطح التسريحة بجنون وألقى بعض الأشياء بعصبية على الأرض إلَّا أن وجدَه فتبدلت سحنته، جلست أرتب محتويات الأدراج إلى أماكنها، اتجه زوجي صوب الباب ثم تريث قائلًا:

- صحيح إحنا النهاردة معزومين على العشاء عند أولاد خالتي، عايزين يتعرفوا عليكي.

قال ذلك وخطا إلى الصالة، تركت الأشياء من يدي ونهضت وتبعته، توقف بغتةً في الصالة ثم عرج إلى المطبخ واستكمل قائلًا:

- أنا بقول نروح العزومة وبلاش الفرح، أنتِ عارفة مليش أنا في جو الأفراح والهيصة دي.

* دايمًا بتفاجئني يا دورغام، يعني لولا من أني استلمت دعوة الفرح بالصدفة مكنتش هعرف أساسًا أن إحنا معزومين، وكان ممكن تتصل عليا وأنت في العربية تقولي انزلي عشان إحنا معزومين صح؟

- متأفوريش والنبي يا «نبض»، أنتِ عارفة أن أنا بنسى دايمًا.

سألته مرة أخرى:

- مجاوبتنيش يعني، مجبتليش سيرة خالتك دي قبل كدة ليه؟

تململ في مكانه وحدجني بنظرة مبهمة، وفكر بغتةً قبل أن يجيب، ثم أخبرني أن خالته توفت منذ زمن، ومنذ تلك اللحظة وتصدعت الصلة بينه وبين أولادها حتى زالت وانقطعت ومنذ وقت قريب فقط التقى بأحد أبنائها صدفةً، ومنذ ذلك اللقاء وهم على اتصال، وأنهى حديثة، وأمسك عن زفرة كادت أن تنشب حريقًا بداخله، لا أعلم أي ذكرى جعلته على وشك الاندلاع.

في الساعة الخامسة مساءً وقفت أمام خزانة ملابسي، أتأمل ما بداخلها من ملابس كي أختار ما سأرتدي، تشدق صوت زوجي خلفي، جاء مكتظًا بهدوء غير معتاد وهو يقول:

- خليني أنا المرة دى اختارلك.

دنا من الملابس وحدد طرفه على فستان، وأمسك طرفه قائلًا:

- البسي ده.

تطلعت له بذهول، وقلت ببلاهة:

* بجد؟ أنت متأكد إنك في وعيك!

لقد اختار فستانًا لطالما زفر وعبس كلما رآه، واستشاط غضبًا كلما حدثته عن رغبتي في ارتدائه بإحدى المناسبات الماضية، وكان دائمًا يعلق معترضًا "ده ملفت للنظر أوي، وضيق زيادة عن اللزوم". سألته وأنا أحاول أن أستشف غرضه المفاجئ.

* بس أيه يا ترى اللي خلاك تغير رأيك وذوقك كدة مرة واحده.

- عشان عايزك تكوني النهاردة في كامل جمالك، وتظهري أحسن من أي حد.

* حد زي مين يا ترى؟

- أصل «نور» بنت خالتي كانت عايزة تتجوزني، وخالتي الله يرحمها كانت عايزة تجوزهالي بردو و...

* خلاص عارفة أن كل بنات العيلة زمان كانوا بيموتوا عليك وعايزين يتجوزوك وأغلبهم كان ليهم فكر متحرر أوي ومش هيناسبك.

- فعلًا خصوصًا «نور» وأهلها.

انتهيت من ارتداء الفستان، وضعت لمسةً خفيفة من الزينة وانتعلت حذاءً بكعب عال، وتأبطت ذراعي حقيبة صغيرة أنيقة، تطلعت لنفسي

بالمرآة بانبهار، جاء صوت زوجي من الرسيبشن يستعجلني، خرجت إليه، تطلع لي بسرور، وهبطنا السلالم بنشاط، وقف زوجي بالسيارة أمام الباب الرئيسي لفيلا جميلة بلغت من الأناقة أجملها، فتح لنا الحارس الباب، دلفنا إلى الداخل، مررنا بحديقة مزهرة بارعة الجمال يبدو أن البستاني مهندس يمتلك قلب عاشق، نظرت إليها مندهشةً، أبحث عن الياسمين الأبيض الذي كان في كل أرجائها، تتسلل منها رائحة ذكرى حارقة إلى أنفاسي؛ لتؤكد أنها لم تكن مجرد تخيلات تلاحقني في طفولتي، قلبي ينغرس فيه الفزع وعقلي بدا مخدرًا، ضغط زوجي على زر الجرس بحدة، جاء صوت رقيق لامرأة تطلب من الخادمة أن تترك لها تلك المهمة لتقوم هي بنفسها بفتح الباب، فتحت لنا الباب بابتسامة تلمع من الحماس، امرأة أنيقة، ترتدي بنطالًا باللون الأسود، وقميصًا باللون الأزرق، تفيض من قسماتها البهجة التي تعطيك شعورًا بأن عمرها لا يزيد عن ثمانية عشر عامًا، فيما أنها قد بلغت من العمر سبعة وأربعين عامًا، استقبلتنا بالترحيبات الحارة والكلمات المنمقة ولم تشح نظراتها من عليَّ ولو لثانية، وكانت تلك النظرات يلوح بها الذهول والتعجب الكبير، قادتنا إلى غرفة الاستقبال، جلست قبالتي وهي تتأملني بنظرات متضورة، وما لبثت أن قالت:

- تعرفي إن فيكي شبه كبير جدًّا من مرات طارق الله يرحمها. لأ شبه إيه، ده كأنك أنتِ هي.

ارتجفت وغمرتني مرارةٌ بطعم الصدأ، حاولت أن أبدو على هيئتي الرصينة، لكن كنت من داخلي أستقبل ضربات من يدق مسمارًا على جزع شجرة، نقلت «نور» طرفها إلى زوجي وقالت:

- هو دورغام مقالكيش حاجة زي دي ولا إيه؟ دي حتى كانت أخت صديق عزيز عليه أوي.

تنهد زوجي في ضيق بصوت مرتفع، وتململ في مكانه متضورًا، مرتبكًا ثم أجاب بجفاء:

* لأ، أصل مجاتش فرصة لحاجة زي كده.

ثم أردف وقد أراد أن يغض الطرف عن هذا الأمر قائلًا:

* هو طارق وحسام ميعرفوش إن إحنا جايين ولا إيه؟

- لأ بالعكس، طارق أجل كل شغلة ولغا كل مواعيده عشان يكون في استقبالكم، زمانه نازل دلوقتي، أمَّا حسام الله يكون في عونه، إنت عارف أن شغله صعب أوي.

ثم استرسلت قائلةً وهي تتطلع إليَّ:

- لقيت القمر ده فين يا دورغام، طول عمرك محظوظ.

* لا محظوظ ولا حاجة، هي اللي المفروض تصلي كل يوم ركعتين شكر لله.

جاء رده صادمًا لي فارتعشت أوصالي وانتابتني قشعريرةٌ أثلجت جسدي وقلتُ في سريرتي: "لماذا هذا الرجل يحاول دائمًا أن يقلل من

شأني أمام الغرباء والأصدقاء والأقرباء؟ أيجد متعةً في تلك الإهانة؟ لماذا يعاملني بانتقام وكأنني سببت له ندبًا لا شفاء له؟ أم أن تسامحي وغفراني لكل أخطائه وآثامه جعل مني مهرجًا بالنسبة له، لا يبالي لجراحي ولا يشفق على أوجاعي؟

استرعى انتباهي في تلك اللحظة فتاة دلفت غرفة الاستقبال، في العقد العشرين من عمرها، عقصت شعرها على شكل ذيل حصان، ترتدي (شورت جينز) باللون الأبيض، وجاكت لونه أحمر، وقد بدا على تصرفاتها ومظهرها الدلال بشكل واضح، صافحت زوجي قائلةً بتكلف:

- هاي أونكل.

ثم استدارت نحوي بنظرة مربكة وصافحتني قائلةً وهي تتطلع إليَّ:

- هاي، أنا نانسي.

ثم استدارت نحوي بنظرة مربكة وصافحتني قائلةً وهي تتطلع إليَّ:

- هاي، أنا نانسي.

رددت ببطءٍ:

* أهلا يا نانسي، أنا «نبض».

تبادلت النظرات مع «نور» بغموض ثم أدارت وجهها نحو زوجي قائلةً بمكرٍ:

- بنتك دي يا أونكل؟

نظر إليها زوجي بتمعن شديد وأجابها مزمجرًا:

* لأ مراتي.

تطلعت «نور» لـ«نانسي» بنظرات ضيق وقد استبد بها غضبٌ عابر مما اقترفته نحو ضيوفها من جرأة واحتدام بدلًا من أن تتخذ نحوهما طريقة لطيفة في الترحيب بهما، نهضت «نور» وركضت نحو نانسي، جذبتها من ذراعها وهمست لها بصوت منخفض جدًا وقادت نانسي إلى الخارج وعند الباب أدارت رأسها مستأذنةً منا للخروج.

وبعد برهة دلف إلى الغرفة رجلٌ يرتدي بذلةً أنيقة إسبارطية الشكل، ذو شعر كثيف داكن اللون مقصوصٌ بطريقة معاصرة شديدة التكليف، رجلٌ طغت على تقاسيمه الوسامة وعلى هيئته كامل الأناقة، وكأنه خرج للتو من أحد أفلام هوليود، دنا من زوجي وصافحه بود وحين أدار وجهه نحوي، وجف قلبه وخفق وجمد في مكانه، وكشفت الحقيقة عن أنيابها وأصبح الشك يقينًا وأنا أستعيد من ذاكرتي ذلك اليوم الذي التقيت به لأول مرة في مكتب الشيخ حمزة، غرق برهةً في صمت وهو يتأملني، ثم مد ذراعه بتأن وصافحني قائلًا بارتباكٍ:

- نورتي يا مدام.

جلس بتكلف، وغيمت سحابة حزن على ملامحه، كان شارد الذهن، مشتت الفكر، يصارع بداخله من أجل الحفاظ على هيئته من الانهيار، تبادل مع زوجي حديثًا معتادًا حول الفرق بين الطرق والطقس في مصر ودول أخرى، التقت عيني بعينيه خلسةً فارتبكت، وظلت عيني بعدها

عالقتين بفنجان القهوة بحذر، وبعد بضعِ دقائق دخلت «نور» وقادتنا إلى غرفة المائدة، اتخذ الجميع أماكنهم بارتياح عداي أنا حيث صارعت لأجد طريقةً مريحة للجلوس، جلست مشتتةً أحاول اعتقال ارتباكي حتى لا يفسد عليَّ الاستمتاع بالطعام، أمسك زوجي الشوكة والسكين وشرع في تقطيع قطعةً من اللحم المقدد.. جاء رنين هاتفه من داخل غياهب جيبه مختنقًا، ترك الشوكة من يده بقلق وأخرج الهاتف بتلهف وحين نظر إلى الرقم المتصل قام بالرد باستعجال، تطلع إلى الجميع ثم قفز وهو يقول:

- طيب خليك معايا لحظة.

ثم قال بصوت مرتعش موجهًا حديثه إلى أبناء خالته:

- معلش يا جماعة بعد إذنكم معايا مكالمة مهمة.

ابتعد عن المائدةِ، تبعته بعينيَّ، حتى وقف بجوار زاوية وبعد أن أنهى مكالمته تخلله قلقٌ وحيرة وبدا عليه عدم الاتزان ثم عاد متجهًا نحونا ببطء شديد ووجه أصبح مصفرًا باهتًا وقال بصوت مرتبكٍ:

- إحنا لازم نمشي، حصلت مشكلة كبيرة ولازم أسافر الواحات دلوقتي.

ثم تابع موجهًا إليَّ الحديث.

- يلا يا «نبض» عشان أوصلك البيت قبل ما أسافر.

توقفت عن الطعام والتقطت منشفةً جففت بها شفتيَّ الخاليتين من بقايا للطعام، إلَّا أنني رأيت ذلك المشهد كثيرًا في الأفلام السينمائية، نهضت متأهبةً للمغادرة، أبدت «نور» اعتراضها بصرامة قائلةً:

- سيب «نبض» معايا يا دورغام وسافر أنت بدل ما تقعد لوحدها ولما ترجع من السفر ابقى عدي خدها.

رفض زوجي في بادئ الأمر، لكن مع إصرار وإلحاح «نور» وافقت، لكنه طلب مني أن أتبعه حتى السيارة، قادني من يدي وعند باب الحديقة تريث واستوقفني قائلًا بحدة:

- مش عايزك تحتكي بـ«طارق» نهائي، كلامك كله يكون مع «نور»، وأي حوار يحاول يفتحه معاكي تجاهليه.

ثم تابع بنبرة رصينة:

- «طارق» بتاع نسوان وسكته كلها مش سليمة.

رددت باستعجالٍ:

- بس كتاباته كلها بتقول غير كده، وواضح أنه إنسان مهذب جدًّا.

قاطعني بعصبية قائلًا وهو يحدجني بنظرة مرتبكة:

- نعم ياختي؟ وأنتِ عرفتي أنه كاتب من فين؟

* أنت عارف أن كل الصفحات اللي متابعاها على السوشيال ميديا خاصة بالأدب، وبشوف صوره واسمه على طول، ولما شوفته النهاردة افتكرته.

- طيب أنا لا عايزك تثقي فيه ولا في كتاباته.

* ولما هما ناس وحشين أوي كده، وافقت تسيبني عندهم ليه؟ خدني رجعني الشقة أنا مش عايزة أقعد هنا أصلًا.

انهالت الدموع من عينيَّ، وغمرتني موجةٌ من الاختناق وشعرت برغبتي في الفرار من ذلك المكان، ولم يغدو شيء بداخلي أرغب فيه بكامل كياني سوى أن أغادر تلك الفيلا، لا أعلم لماذا، هل لأن مثلي لا يروق لهن البقاء في الأجواء الاجتماعية المحفوفة بمرح الأسرة، أم ذلك الماضي الذي استيقظ مثل طاغوت يجثم فوق روحي بظل شديد السواد وثقل تهابه الجبال، لكن القدر كان له رأي آخر، وتركني زوجي بعد أن حاول تهدئتي، وربما ما جعله يتركني باطمئنان هو انهياري المفاجئ. جلست مع «نور» أراقب حركاتها الراقصة، حبها وشغفها للحياة، امرأة مختلفة كثيرًا عني، تتحدث بثقة مطلقة، رصينة، مزهوة بنفسها لمن لا يعرفها جيدًا، وذلك يعود إلى أنها لم يكن من السهل أن تسمح لأي شخص بصداقتها، على عكسي تمامًا فيمكنني أن أعتبر كل من تقول لي "صباح الخير" صديقةً، شخصية قوية وحازمة رغم رقة قلبها التي تطغى على تعاملاتها، تفعل ما يحلو لها دون الاكتراث لأحد، ولم تكن تأخذ أي شيء بعين الاعتبار، ولم تكن تلجأ لتلك الحرية بدافع السوء، بل بدافع الأخلاق التي تحلت بها، فهي تؤمن بأنها ما دامت لم تقترف ذنبًا أو تؤذي أحدًا فلا تأبه بأحد.

تابعت تقول:

- مفيش شيء اسمه مستحيل حتى المعضلات مع الزمن بيتوجد ليها حلول، التكنولوجيا والحياة اللي بنعيشها دلوقتي، كانت في زمن قبل كده خيال بعيد كل البعد عن تصور الإنسان حتى.

* تفتكري أن هيجي زمان ونكتشف سر الموت ونقدر نوقفه.

- أعتقد لو العالم وصل للمرحلة اللي بيؤمن فيها أن الموت مجرد قوة متواجدة مش قوة خارقة ممكن، قبل كده شوفت فيلم أجنبي لطالب بيتأخر عن المحاضرة فبيدخل القاعة يلاقي مسألة ويكون متأكد أن من عادة البيرفيسور أنه لازم آخر كل (Lecturer) بيسيب مسألة لطلابه، لكن البيرفيسور في الحقيقة ساب المرة دي معضلة، وقال إن من آخر المستحيلات حلها، لكن الطالب لما فكر أنها مجرد مسألة حلها لكن لو كان سمع كلام أستاذة عمره ما كان هيعرف يحلها لأن هيكون عقله اتهيأ خلاص وكل مراكز نشاط المخ اتقفلت.

استعادت «بسمة» معي كثيرًا من الذكريات بداية من هزات الحب الأولى في قلبها.

- الحاجة الوحيدة اللى بتقبل كل تضاد هي الحب، ممكن يخليكي غبية جدًّا، وممكن يجعل منك إنسانة قوية أوي.

تكلمت باستفاضة عن الرجل الوحيد الذي تغلغل بأعماق قلبها، انتزعت نفسها من ذكرياتها ونظرت لي بتمعن نظرةً طويلة ثم قالت:

- هو دورغام حكالك عن حكايته مع بسمة؟

سألت بتلهفٍ:

* بسمة مين؟

- بسمة مرات طارق الله يرحمها.

قولت بتلعثم بعد أن ضربت عاصفةٌ أوصالي:

* هي اللي كانت شبهي.. اسمها «بسمة».

- أيوة بالظبط ... كانت أخت صديق لجوزك ووقتها حبها جدًّا وكان كل مناه أنه يتجوزها، في الحقيقة مكانش بيعرف أن هي وطارق مرتبطين ببعض من أيام الطفولة، ولما عرف أنهم هيتجوزوا قطع علاقته بينا، واتغير أوي معانا، وبعدها ساب مصر كلها وسافر، ويادوبك رجع يتواصل معانا بالصدفة من شهرين.

منحتني «نور» إجابةً لأسئلة كثيرة تدور في عقلي، علمت الآن لماذا دورغام منذ الوهلة الأولي التي رآني بها وهو كان يصر على الزواج مني، علمت أيضًا لماذا كان يعاملني معاملةً سيئة وكأنه يقتص مني، وهل أمثل له مجرد مسخ من امرأة اقترفت إثمًا عظيمًا في حقه فقرر حين رآني الانتقام منها؟ وهل تعمد وجودي هنا انتقامًا من طارق؟ سألت «نور» في شرودٍ:

* هي ماتت إزاي؟

صمتت ثم تطلعت لي بنظرة طويلة وانحدرت دمعةً من مقلتيها وأفعم قلبها الحزن، ثم زفرت زفرةً انشق بها صدرها، وتنهدت منفعلةً، وقالت بنبرة ضبابية وهي شاردة الذهن في وطأة الماضي.

- انتحرت.

حاولت أن أمسك لساني حين تدحرجت فوقه عبارة (لم تنتحر بل قتلت)، وتمنيت لو أن أمسكته عن الكلام كله، وتمنيت لو أنني لم ألتقِ بزوجي أو «نور» وطارق، لقد أصابني سقمٌ أثار شجني وصمتٌ قاتلٌ يغلق شفتاي ويثلج كياني، أي شيء يمكن الآن أن يواسيني، تابعت «نور» حديثها باستفاضة، لكني كنت مشوشة الذهن تمامًا فلم أسمع أي كلمة سوى وهي تهزني بصوت مرتفعٍ:

- نبض.. مالك؟ بكلمك مش بتردي وكأنك في عالم تاني.

* لأ أبدًا، كنت بقولك إن كل شيء في الحياة دي مقدر ومكتوب الله يرحمها.

- الله يرحمها، بس القدر والنصيب كلها كلمات فاشلة صنعها خيالنا عشان نعيش وسط غلطاتنا وأفعالنا وفشلنا بضمير مرتاح ونستسلم لعجزنا بسعادة.

دخل «طارق» وفي يده كتاب الوصايا المتناقضة لـ (كينت كايث)، ألقى السلام وكان يبدو عليه التوغل في الآلام، ليس ألمًا ناتجًا عن مشاعر عاطفية أو ربما ذكريات بل ناتج عن ندم، دنا من «نور» وانحنى فوق رأسها وطبع قبلةً عليها وقال بصوت متهدج:

- تصبحوا على خير.

سألته «نور»:

* هتنام بدري أوي كده؟

- أكيد مش هنام دلوقتي، عندي شوية مراجعات هشتغلهم.

* طيب ما تيجي تقعد معانا شوية.

تجاهل «طارق» عبارة «نور» وخطا للخارج بخطوات واهنة. حكت «نور» باستفاضة عن علاقته بزوجته، وكم كان يعشقها، ولذلك لم يفكر ولو لمرة واحدة في الزواج، قضيت ثلاث ساعات أخريات ونحن نتبادل الحديث فيهما، طلبت مني أن ترى صور زفافنا وأثناء ما كانت تشاهد هذه الصور عبر هاتفي، رأت فيديو لي وأنا أغني فيه، وقد كانت من عاداتي في أوقات فراغي أن أقوم بتسجيل مقاطع فيديو لي وأنا أغني محاولةً لاستنزاف أوقات الملل والضجر، فانبهرت بصوتي أشدَّ انبهار، وقالت في دهشةٍ:

- تعرفي أن «بسمة» كانت بتغني في الأوبرا، وكان ده سبب الخلاف الوحيد بينها وبين «طارق».

جفاني النوم، اختارت لي «نور» غرفةً بجوارها، وبعد أن انتهت الخادمة من ترتيبها، قادتني إليها، كانت غرفةً واسعةً أنيقة ذات شرفة كبيرة، تزدان بنباتات وزهور الزينة الحية والملونة، وتشتمل على حمام صغير، وفى عمقها يقبع سرير النوم الذي فرش بمفرش حريري ذي لون أبيض، وبجلوسي عليه غرقت في النوم على الفور.

تلصص نور الفجر من شرفة الغرفة التي لم أغلق بابها أو أسدل الستار عليها، امتد عبرها كأياد امتدت لتوقظني بلطف ورقة تخجل منها كل منغصات الحياة، نهضت بروح تنتشي، تحسست الطريق إلى الشرفة وأنا مغلقةٌ أجفاني، وقفت أمامها أراقب الطبيعة وهي محتبسةٌ بداخل

شرنقةِ الضباب ولم تلد الشمس من رحم الفضاء بعد، لكن أشعتها البعيدة الواهنة وهي تزحف على بلادنا مودعةً باقي العالم كانت مختنقةً وغاضبةً، تطلعت إلى الحديقة التي استحوذ جمالها على عقلي بذهول، أبحث عن القرنفل الأبيض التي كانت تزرعه «بسمة» في كل أرجائها، لكن لم أجده! شيء بداخلي مجهول تحرر من اعتقالِهِ يصطرع بمخيلتي ويحاول دفعي إلى الهبوط للحديقة، شيءٌ كان قد شارف على الموِت والآن يزحف نحو النجاة، شعرت أن كل تلك الغرفة خاليةٌ من الأكسجين ولا تَسَعُ روحي، فلا مانع أن هبطت إلى الحديقة، وحظيت بنصف ساعة بين كل ذلك الجمال، هبطت السلالم على أطراف أصابعي، انفردت وحدي بجمالها، ملأت رئتيَّ بالأكسجين غير الملوث بزفير البشر ممتزجٌ بروائح ندى النباتات ورائحة حريق الحطب الهاربة من أحد صباحات يوم شتاء قارصِ البرودة، تذكرت كم أعشق الشتاء، أهو وحيٌ من الله!

تأملت شجرةً تتنقل العصافير عليها من غصن لغصن فرحةً بإشراق يوم جديد، فركضت معهم بروحي دون أن أحرك جسدي، أسندت ظهري إلى جزع شجرة أخرى، ورحت أوزع نظراتي بالعدل على باقي الحديقة، وقفت أمام زهور "اليستروميريا "فدُرت بقلبي حولهم كصوفي لا يَكُفُّ عن الدوران.

أجحفني صوت تشدق خلفي قائلًا في رقةٍ:

- صباح الخير.

أدرت جسدي نحوه بتأنٍ وأنا أرد.

* صباح الخير.

كان «طارق» يقف خلفي شاردًا في وجود آخر، توغلت لبرهة في جَلْدِ ذاتي، كان من المفترض أن ألزم غرفتي التي منحتها «نور» لي، ما كان يحق لي أن أهبط إلى الحديقة، أنسيت أنني أمكث هنا ضيفةً لا أكثر، إنه ليس من الذوق والأدب على الإطلاق أن أفعل هذا الأمر، لكن ماذا إذا كنت سقطت في فتنةِ الحديقة دون أن أدري، تابع «طارق» يقول وهو يتطلع لي:

- تحبي أعمل لك قهوة؟

ثم أضاف بنبرة مداعبة.

- متقلقيش أنا أحسن حد ممكن يعمل قهوة فرنساوي في مصر كلها

ما له! لا يكف النظر عني هكذا! دسست عينيَّ في غصن نما فجأةً تحت قدميَّ وامتد نحو زهرة الأقحوانِ.

قُلتُ بارتباك وصوت مختنقٍ:

* أنا آسفة مكنتش أعرف إنك موجود في الحديقة.

قلت ذلك وأنا أستدير للجهة الأخرى، لكنه خطا نحوي حتى أصبح وجهه محاذيًا لوجهي، وأردف قائلًا:

- مين اللي قال إني كنت موجود في الحديقة، أنا لسة جاي حالًا.

اختلست نظرةً على عجل منه، كان يرتدي بنطالًا (أوف وايت) وتيشيرت (دارك ريد) مبهج، واضعًا يداه داخل جيوبه، أردفت قائلةً وأنا أخطو للتحفز لترك الحديقة.

* طيب أنا هطلع لـ«نور».

خطا أمامي واستوقفني وهو يقول:

- «نور» مش هتصحى دلوقتي، ثم أنا ضايقتك في حاجة؟ ليه كل ما بحاول أفتح معاكي أي حوار بتحاولي تهربي، وبحسك دايمًا خايفة ومرتبكة.

لا أحب تلك الكلمات وكل مرادفاتها فقد تعني دائمًا للناس محاولةً لإخفاء جريمة عاطفية أو نفسية أو حتى جنائية، أمَّا أنا فتعني لي أكثر من ذلك. سألني وهو يحدق بي.

- ليه مش بتردي على كلامي؟

أردت أن أخبره بأن يكف النظر عني، نظراته المحدقة بي تزيد من توتري وارتباكي ولا أستطيع أن أبادله ولو نظرةً عابرة، بحثت في ذاكرتي كالعادة عن كلمات أجيبه بها، ذاكرتي مطموسةٌ بسقمي، وليس لديها أية قدرة على أي انخراط في أي حوار دون أن تتوقف بحثًا عن كلمات تسعفها أو وسيلة مساعدة، وعقلي فارغٌ مصابٌ بالرهاب الاجتماعي، ولا يجيد الردود المناسبة، وروحي دائمًا مشتتةٌ ينتشر فيها الأسى ببذخ، ولا شيء بداخلي لدية الاستعداد لمواجهة انزوائي والعزلة التي فُرِضَتْ عليَّ، والتي أصبحت الشيء الوحيد الذي أرغب فيه دائمًا. سمعت

ذات يوم أمي وصديقةً لها تتحدثانِ عن كيف تكون تربية الأنثى في الأسرة المستقيمة، وكان كلامهما فيما معناه أن الأنثى أينما ولدت فهي مجرد قطعة من اللحم الذي يجب تتبيله بالعادات المتوارثة التي تحرم عليها كل فكر أو مجال آخر ترتقيه بجانب المطبخ ثم الحفاظ عليها داخل برَّاد مغلق بإحكام للحفاظ عليها من الفساد، حتى جمدت مشاعري وطمست ذاكرتي واعتقل الفراغ عقلي وأصبحت روحي منتهية حد التعفن ولم يعد سوى جزء من قلبي ينبض بيأس وإرهاق ليساعد جسدي في الزحف نحو تلال الحياة يداهمني هلع من نظرات «طارق» لي ولا أعلم هل كان ينظر لـ «بسمة» أم لـ «نبض»!

تحدث معي لمدة ساعتينِ، وكنت دائمًا أنصتُ أكثر مما أتحدث، وقد انبهرت بفكرهِ وكنت أنتظر طوال الوقت لأن يحدثني عن زوجته التي تشبهني، لكنه لم يفعل!

دقت الساعة الرابعة وكان من المفترض موعد عودة زوجي كما أخبرني لكن الوقت مضى ولم يعُد، حاولت الاتصال به كثيرًا، هاتفه مغلق، وفي الساعة السابعة مساءً تلقيت اتصالًا منه، رد بتلهف بعد أن قطع الصبر أوصالي، اعتذر لي عن عدم عودته لظروف قسرية خارجة عن إرادتِهِ واقترح عليَّ إمَّا أن أقضي يومًا آخر مع «نور»، وإمَّا أن أعود لأنتظره في شقتنا، ولم ينسَ أن يحذرني من طارق، «نور» تصر بشكل حاسم وبطريقة ودية لطيفة في البقاء معها.

نمضي سهرة مسائية غير اعتيادية وسط أضواء لامعة ومزهرة، تنشأ بيني وبينهم صداقة قوية كما لو نعرف بعض منذ زمن، «نور» تعاملني بتودد وحبٍّ كما لو كانت تراني بسمة، وهذا ما يجعلني أكتشف مدى حبها لـ«بسمة»، «طارق» يعاملني بحذر رغم نظراته الشاردة التي يفيض منها الاشتياق لـ«بسمة»، إلَّا أنني أقنعته بأنني لست هي، تناغم الأسرة يثري حواسي ويتدفق الأمان بداخلي. «طارق» دائمًا يبهرني بمعاملته لـ«نور» و«نانسي»، وكيف يغدقهن عليهن بالدلال والحب، أفرح كما لو كنت أنشد قصيدةً عن الأقحوان الأزرق، وأحزن كما لو كنت أغني لزهور التأبين، حين أنسى أنني أمكث وسط كل تلك السعادة لفترة مؤقتة أفرح، وحين أتذكر لحظة الفراق أحزن، يعرفني «طارق» على مكتبته، مكتبة معقدة، مليئة بالفلسفة والكتب الضبابية، والكثير جدًّا من الكتب التي تتحدث عن عالم ما وراء الطبيعة، كما كان بها جزء كامل لكتب جميعها تتحدث عن القانون الفيزيائي للديناميكا، وفي صباح اليوم التالي يأتي «حسام» وزوجته وابنه استعدادًا لزفاف «نانسي» الذي سيبدأ في مساء اليوم التالي، حسام حين رآني ابتسم لي في ذهول كما فعلت «نور» للوهلة الأولى التي رأتني فيها، زوجته امرأة ودودة وجميلة ودائمًا مبتسمة، وحين تحدث والدها اللواء «شاكر» تنحي كل الألقاب وتناديه بـ (شاكر) وتغير طلاء أظافرها في اليوم مرتين ودائمًا حريصةٌ على أن تجعله باللون الذي ترتديه من الملابس، وحين انتهى اليوم بكامل تفاصيله وصعدت للنوم تذكرت أنني نسيت أن أهاتف زوجي وبكيت بحرقة وأوخزني ضميري، فكرت لوهلة قبل أن أهاتفه، لماذا

نسيته وشُطِبَ من ذاكرتي بتلك السرعة ونسيت كل شيء، ارتعدت من نفسي، وأنا التي لم أعتَد على النسيان. بدأ حفل الزفاف الصاخب كحفل أسطوري وحضر جميع المعازيم، وقف منسق الحفل يشرح لـ«حسام» أنه في الغالب يرسل نائبين عنه لكنه قرر أن يترك كل أعماله الأخرى هذا اليوم وينفرد للإشراف بنفسه على الحفل، وذلك تقديرًا اختص به «حسام» حيث يرى مكانته عظيمةً لما حققه في عمليات خاصة كشفت عنها وزارة الداخلية عبر التلفاز كما يراه من الضباط الباسلين، المخلصين ورغم أن منسق الحفل كان يبدو عليه أنه يمتلك عدة شخصيات، ويعرف كيف يكسب الكل، ويحافظ على عمله في أبهى صورة إلَّا أنه في ذلك اليوم قال الكثير من الصدق. انبثقت بإحدى الفقرات أغنية سيا (helium)، ووقف العروسان استعدادًا لرقصة هادئة، لفت العروس ذراعيها حول عنق زوجها وطوَّق هو خصرها بذراعيه وقبل أن يشرعا في الرقص طبع قبلةً بسعادة وشغف على جبينها، هدجت منها كل مشاعر الحب فتوردت وجنتيها، ورقت عيناها وبادلته نظرةً تشبه قصيدة خالدة مفعمة بالحب، حتى أنهما ظهرا للملأ أسعد زوجين خُلِقوا في الحياة، جلس الحاضرون يتطلعون للعروسين باستفاضة حول موائد ذات مفارش بيضاء عقدت فوق أطرافهم المتدلية فوق السجاد زهورًا حمراء كانت ترفرف كلما اقتحمتها نسمة رياح كما ترفرف الإعلام فوق مباني السفارات، وحين بدأت فقرةٌ أخرى لمطرب شعبي مشهور نهض بعض الأقرباء والأصدقاء وصعدوا إلى المسرح وشاركوه الغناء والرقص ببهجة وسعادة، وكانت من بينهم

«نور» التي تحولت بناظريها إليَّ وأشارت بيدها في حركة فيما معناها أن أصعد معهم إلى المسرح فهززت رأسي رافضةً، جلست داخل نفسي منزويةً منعزلةً، أختلس النظرات لهذه الأجواء الصاخبة التي لا تناسبني ولا أناسبها.

سارحةً ببصري هاربةً إلى الأفق البعيد، السماء أبرقت وخُصَل ضوء الزفاف صعدت وتوددت مع نجومها، والألوان القرمزية ترتجف في دفقة الهواء وكأن العالم كله يقول نحن سعداء، الجميع فرحون عدا أنا أفكر في بؤسي وشقائي والسعادة التي تتفشى بالمكان، أفكر فيهما كنقيضين ما كان لهما أن يجتمعا في مكان واحد، فيلوح لي بأنني لا مكان لي هنا.

خمد الحفل وجلس العروسان واستمع كل الحاضرين باهتمام، وركز الجميع بنظرات برَّاقة إلى المسرح حين حانت فقرة مطرب مشهور يحبه الجميع، رفع بعض المتواجدين كاميرات هواتفهم لتصويره باهتمام، انتهى من إحدى أغانيه المشهورة التي قدمها هديةً للعروسين، صعدت «نور» المسرح دنت منه وهمست له وتبادلا أطراف الحديث لمدة لا تزيد عن الثلاثة دقائق، عاد إلى المايك وهو مبتسمٌ وطلب من الجميع الإنصات إليه ثم استأنف قائلًا بنبرة مبهجة مليئة بالحيوية والدعابة:

- أخت العروسة بتقول إن فيه حد موجود معانا صوته أحلى من صوتي، وأنا بقول مش هكمل الحفل ولا حتى هرجع بيتي قبل ما نسمع صوت «نبض» ونحكم كلنا، يلا كلنا نشجع نبض، فين نبض؟

ارتعدت وارتعش جسدي وتمنيت لو أن الله منحني أجنحةً تسعفني لأطير بها إلى الفضاء، لأختبئ في فرديته وحيدة، لا بشر ولا عرس ولا جنازة، لا زواج ولا طفل، لا أنا ولا أحد، نسيت أن «نور» أقسمت لي أنها ستجعلني أغني في عرس نانسي، وأقسمت أنها ستغير من انطوائيتي وعزلتي، كانت تتحدث بثقة وتقول لي: "هناك طائرٌ بداخلك يريد أن تنبثق منه أجنحةٌ ليشدو، ولا يكفيه العالم كله أن يزعجه بضوضائه، كطيور السنونو حين تدور ملقيةً بنفسها داخلة خارجة مغردة، أريدك أن تخرجي عن صمتك وتطلقين لرغباتك الحرية، أن تدربي عقلك وقلبك على القوة". أعاد المطرب طلبه مرةً أخرى، وقفت داخل روحي حائرة مشتتة، مضطربةً اضطرابًا عنيفًا، كيف لامرأة لم تواجه من قبل ثمة حديث مع أجنبي إلَّا وتعثرت وسقطت الكلمات من ثغرها هاربةً ولا تقوَى على النظر في أعين البشر تغني في حضور كل تلك الشخصيات؟

مرقت «نور» وشقت الطريق إليَّ وسحبتني من ذراعي إلى المسرح، تجهم وجهي في بداية الأمر وعُقد لساني ولقطت أنفاسي بثقل، لكني تذكرت شيئًا واحدًا أنني لا أحب الخذلان ولن أخذل «نور»، تحررت من خوفي وأقنعت نفسي أنني الآن «بسمة» وليست «نبض»، ألقيت نظرةً عابرة على كل الحاضرين قبل أن أشرع في الغناء، كان الحفل مكتظًا

بالمشاهير ورجال السياسة ورجال الأعمال، وكانت «ليال» تجلس في أبهى صورة، مرتكزة بذراعها على المنضدة التي جلس عليها اللواء «شكري» وحفيده و«طارق» الذي نظر لي شذرًا وتململ في مقعدهِ، وكأنه يتألم من شيء، شرد الجميع في صوتي حين بدأت الغناء بانبهار، مضت ثلاثة دقائق والهدوء يخيم على الحفل، دلف زوجي إلى قاعة الحفل بتلهف، نظر نحوي نظرةً مخدرة، ثم استفاق حين كشف له بصره وجهي فبدا كالعهنِ المنفوشِ واقترب إلى المسرح ببطء غير مصدق وهو مذهولٌ، مفزوعٌ، وتصلبت عضلات وجه وأوشكت على الموت غير مصدق، أهي حقًّا كما يتراءى له زوجته «نبض»؟ أم استيقظت «بسمة» من موتها ورحلت «نبض»؟ فكرت أن ألقي بالمايك وأعود خاضعةً، لكن كان لا بد لي ألَّا أرسب في أول امتحان لتدريب عقلي على القوة، لم يكن ما يهمني أن يصفق لي الحاضرون وينبهروا بصوتي، بل تحديت نفسي أن أصمت أمام وحشيةِ زوجي وبالأخص حين اكتشفت أنه تزوجني فقط لأنني أشبه «بسمة»، وجاء بي إلى هنا ربما لإعادة الماضي بينه وبين «طارق» على اختلاف أنه الآن هو الفائز.

تساءل زوجي في قرارة نفسه قبل أن يشق الطريق إلى المسرح بخطوات راكضة كمن يهرب من نار تلاحقه، كيف تجرأت على هذا الفعل الشنيع؟ وقد كان يبدو عليه أنه جنَّ جنونه، لكن «طارق» نهض من مكانِه في رمشةِ عين واستوقفه محاولًا تهدئته، وبعد أن نجح في استوقاف زوجي نظر لي متأملًا متجهمًا وكأنني اقترفت شيئًا بثَّ في نفسه ذكرى بشعة حزينة، أفلت زوجي يداه من قبضة يد «طارق» بعصبية وقوة كما

لو كان يكسر بيده في سباق بضعة ألواح ثلجية، وحدج «طارق» بنظرة محتدمة أنهى بها أي كلام أو عتاب وترك الحفل كله وهو يلهث من الغيظ فتبعه «حسام»، بدأ البعض برفع هواتفهم لتصويري كنجمة سينمائية غير مدركين ما حدث وما سيحدث، لكن «طارق» سيطر على الأمر وطلب منهم عدم التصوير، احترم الجميع هذه الرغبة عدا شاب في مقتبل العمر يبدو على هيئته الاستهتار وارتفع صوته وتطور الأمر لشجار بينه وبين «طارق» حين حاول أن يأخذ هاتفه لمسح ما قام بتصويره بالقوة وحينها تدخل والده وهو رجل أعمال أشهر من كل الشخصيات التاريخية إنه «أدهم السلحدار»، ارتفع صوته بحنق وغطرسة أثناء تركه للحفل هو وابنه، فالتفتت كل الأنظار إليه وتساءل في قرارة نفسه وهو مزمجرٌ، "من تكون تلك المرأة لتكون سببًا في عدم تقديري؟"، فشأنه يعلو أي شأن آخر حتى وإن كانت كارثةً ستصيب لعنتها بلدًا بأكمله، وفرض على الجميع أن يمنحه الإخلاص ويبجلونه ولا يبخسونه حقه من التقدير فهو من أهم آباء الوطن المهيمنين على كل الأمور.

اصفرَّ وجه «طارق» وكأنه نِدِم على فعلته تلك، ثم سحب «نور» من ذراعيها وقادها إلى الداخل بغضبٍ.

استحال أمامي الدافع الذي دفعني لأنْ أكمل، وانهارَ داخلي انهيارًا كاملًا، عُقد لساني وانتهيت من الغناء قبل أن أنهي أغنيتي التي قدمتها وتبعتهم إلى الداخل، وقف «طارق» مشدوهًا مزمجرًا وهو منخرطٌ في لومِ «نور» وقد حملها كل ما حدث ونشق نفسًا عميقًا وهو يصيح في

وجهها، كأن هناك شيئًا مريعًا يصطرع في مخيلته جعل غضبه يتوغل في صدره، شيء ربما يخص ذكرى كتمها في قلبه وحده دون أن يفصح عنها لأحد حتى أنني ارتعدت من نظراته القاسية التي لم أعهدها فيه، شيء جعله ينسى ما ناجى به، ما سطر قلمه، ما آمن به. وحين قالت «نور» بعتاب ودي:

- أنت عمرك ما عليت صوتك عليا بالطريقة دي!

ثم أردفت محتدمةً:

- وكل ده عشان واحد متخلف زي دورغام مش شايف غير نفسه وبس.

رد «طارق» في عصبية قائلًا:

- أنتِ اللي مش همك أي حاجة حصلت النهاردة، لا فرح أختك اللي باظ، ولا دارية بالمشكلة اللي حطتيني فيها مع «أدهم السلحدار».

حدجته «نور» بنظرة طويلة نفاذة وعنيفة قائلةً ببطءٍ:

- آه قول كدة، أدهم السلحدار، أنا مش فاهمة الراجل دة كل ما يظهر في حياتنا لازم يسببلك مشكلة، ويخليك تنفعل حتى على أقرب حد ليك، بس معتقدش أن أنت ندمان على الموقف اللي حصل ما بينك وبينه هو وابنه، ولا إيه؟

استبد به نوعٌ من الخمولِ، ووقف شاردًا دون أن يبصر شيئًا أمامه، وبعد برهة تحدثت «نور» مرةً أخرى وهي تنظر في عينيه بأسًى:

- وعلى العموم أنا مقصدش أن كله ده يحصل، أنا كنت عايزة أساعد «نبض» أنها تخرج من الحياة الكئيبة اللي ...

قاطعها «طارق» بعصبية وقال بصوت مرتفع وبنفاذ صبرٍ:

- ما لها؟ حياتها هي حرة فيها، إحنا ما لنا؟

وقفت أستمع لشجارهما، الدموع تغشى عيني.

سالت دمعةً على خدي، حاولت أن أحبسها بقوة لكنها انتصرت معلنةً أنها الأقوى، دنت «نور» مني وغمرتني بحضنها، يحدجني بنظرة خجل وندم وكأنه يعدل عن لحظةِ شرود أفقدته رشده وهيأت له الأمس في أبشع صورة، لطالما حاول جاهدًا نفسه على قتلها ونسيان أمرها، يدخل «حسام» ويحسم القضية قائلًا:

- نبض، بعد إذنك تعالي معايا دورغام مستنيكي في العربية.

وقفت مشدوهةً، مبهوتةُ وغزل قلبي خليطًا من المشاعر فلم أدرِ أخائفة أنا أم هَلِعة؟ نادمة أم مغايرة؟ تأملني «طارق» لوهلة حائرًا، ثم تشوشت نظراته وأدار جسده وصعد إلى غرفته بخطوات متعجلة، جثم شيءٌ مريعٌ بداخلي، تلاشت الحياة الساطعة المبهجة بكل متعها التي خيلت لي، وتبددت إلى حياة خانقة كئيبة مزيفةٍ.

خطوت خلف «حسام»، أعرب عن وجهة نظره، أسأله متعجبةً:

- دي وجهة نظرك؟

يشرح أن ما قاله وجهة نظر للموقف الذي حدث فقط ثم يقول:

- كل حدث بيتطلب وجهة نظر مختلفة وحلول المشاكل مش بتتبني على قواعد ثابتة، أحيانًا الحل بيتطلب مشكلة جديدة أو قوة غاشمة.

أقول في شرودٍ:

- يا بختك.

يسألني بدهشةٍ:

- يا بختي ليه؟

* عشان ضابط قوات خاصة، راجل سلطة يعني، فأكيد المشاكل بتخاف أنها تواجهك عشان وقتها هتعمل للقوة الغاشمة دي ألف حساب.

يرمقني بنظرة استنكار متحيرًا، يتساءل داخل قرارةِ نفسه هل أنتمي لهؤلاء الناقمين الحاقدين على السلطة، أم أنني مجرد ساذجة خانها التعبير؟ ولم يكلف عقله أن يفكر أن ما تفوهت به هو الحقيقة.

جلس زوجي أمام عجلة السيارة مكفهرًا، والأفكار تسحق رأسه، بادر «حسام» بفتح باب السيارة بجواره بكل لطف، وضعت قدمي اليسرى فوق دواسة السيارة وأنا متأهبةٌ للدخول، رمقني زوجي بنظرة اشمئزاز، وقال بحدة وبصيغة الأمر:

- اركبي في الخلف.

شعرت وكأنني ارتطمتُ بحافة صخرة، جلستُ بصمت في المقعد الخلفي، وحدجه «حسام» بنظرة استنكار ثم قال مداعبًا:

- أنا مسلمك «نبض» صاغ سليم اهي، هتنقص منها شعره هتعرض نفسك للمحاكمة.

يرد زوجي باستهزاء يسوده الغضب:

- إيه يا «حسام» بيه؟ ناوي تستغل سلطتك؟ وبتستغلها في حجات مبتخصكش كمان من الأساس.

- لأ، أنا بس بقصد أفكرك أن في الحياة الزوجية وقت الغضب لازم نفتكر الآية دي (وجعلنا بينكم مودة...).

يقاطعه زوجي في حنقٍ:

- صدق الله العظيم، وفر محاضراتك لأني حافظها كويس، ومتشكر على جمايلكم يا ولاد خالتي.

أنهى «حسام» الحديث قائلًا:

- ماشى يا دورغام، ربنا يهديك.. يلا ليلتكم سعيدة.

اتجه زوجي إلى البيت دون أن يتفوه بكلمة، حاولت أن أستشف الغيب وأقرأ ما يخبئهُ داخل عقله، لكنني فشلت، وعندما استتب بنا المقام في الشقة، تضرج وجهي وشعرت أنني ارتكبت خطأً شنيعًا، ارتعدتُ لضعفي، إنني مقيدة بأغلال من التشتت والتردد، لا أقوى على أخذ قرار سليم أؤمن به لفترة طويلة، تاركةً مصيري يقرره الآخرون أو القدر، تأملني زوجي حينها بنظرة حادة، جحظت عيناه من فرط طول نظره إليَّ، دنا مني وقال بصوت متهدجٍ:

- إنتِ مثال عظيم للزوجة الصالحة.

وقد كانت لهجته تنم عن السخرية المكيل لها بالتهم، نزع معطفه عن جسده المضطرب، رأيت تشنج عضلاته واضحًا بعد أن حاول بذل كل

جهده حتى لا يتفتق من شدة الغيظ، ألقاه بغضب فوق كرسي (الأنتريه)، ابتسم لي ابتسامةً فاترة وكأنه يريد أن يبعث في نفسي الطمأنينة والسلام ثم لفَّ ذراعه حول رقبتي، شعرت برقة ولطف حين داعب جيدي، تفحص وجهي على نحو دقيق كما لم يرَه من قبل، أدرت وجهي للجانب الآخر، وطالعني بابتسامة وهو يقول:

- وأنتِ بتغني كنتِ تحفة، كلك شعور مرهف وأحاسيس مصقولة، قمة الرقة.

انتابني من نظراته وغرابته هلعٌ شديدٌ حبسته بداخلي، وتبدلت نظراته إلى ضيق شديد وهتف متبرمًا مزمجرًا:

- أنا هدخل المطبخ أعملك كوباية ليمون عشان أكيد أعصابك تعبانة، وحتى مش عايزة تردي عليا مع إني مزعلتكش في حاجة، أصل من هنا ورايح لازم أحافظ على إرضائك لحسن «طارق» وحسام بيه يحبسوني.

يقول هذا وينثني بنظره إلى المطبخ، وحين فرغ من حديثه أدار جسده وخطا خطوتين إلى المطبخ:

-استنى يا دورغام أنت لازم تفهم أنا عملت كدة ...

لم أكمل ما أردت قوله، صراخه وهو يصفعني على وجهي صفعةً طرحتني أرضًا، قائلًا:

- أنت فاجرة وأفجر خلق الله.

جعل أذنيَّ موصدةً لبضع ثوان، وشعرت أن قوةً هائلةً صدمتني، أو أن رأسي ارتطم بجدار بقوة، شعرت بسيلان الدماء وهي تدفق داخل رأسي كأسراب من النملِ الجائع الذي ينهش بي، انكمشت على الأرض متجهمةً وأخفيتَ وجهي في راحتَيْ يدي، فانحنى وأمسك بعقصة شعري وسحقني فوق سجاد الأرض وهو يقول بصوت صاخب:

– مش كنتِ عايزة تطلقي يا «نبض» قبل كدة، أنتِ طالق، طالق، بس من غير ما تشوفي الشمس تاني.

تعاظمت الأوجاع بداخلي، ولا أقوى سوى على الاستسلام، وانخرطت في بكاء مر. مضى شهران وأنا في قهر مميت، أسيرةً في كنف جنون زوجي، وهانت الحياة في عيني، وأمطرت السماء فوق جسدي نارًا متأججةً حتى لم يعد مني سوى شبح لإنسان بائس روحه مشوهة، عدا اللحظات التي أشرفت فيها على الانتحار كانت الحياة تسطع، فتمزق الحزن إربًا وتلاشى العذاب هاربًا، فإن فنيت سأتخلص من حزني الدفين للأبد، ولكني كنت كلما أقدمت على التنفيذ أصابني رعبٌ وخوفٌ فيحول بيني وبين تلك الحياة الساطعة، كانت نقطة واحدة يمكنها أن تنهي مخاوفي التي تتجسد بروحي الشنيعة لكن من أين لي بتلك الشجاعة حتى أن كل محاولات الهروب انتهت بالعقم، كيف أكون حرة طليقة وروحي خلقت معتقلة!

عاد يومًا زوجي، عفوًا.. أقصد طليقي في ساعةِ صباح مبكرة، كانت الشمس ساطعةً، دافئةً وكأنها تربت على قلبي، فتسلل دفئها إلى الغرفة، مرق سحاب مثقلٌ بالمطر، تمنيت لو أنه يمطر، الأمطار حين تتساقط بجانب أشعة الشمس الدافئة تكون شديدة الندرة، وتمدك بسعادة فريدة، وما لبثت أنتهي من دعائي إلَّا وزخات المطر أخذت ترتطم بكل نوافذ الغرفة بسخاء، كنت سعيدةً كرجل ردت إليه ضالته الذي فقدها منذ سنوات طويلة، وكانت تلك الضالة فلذة كبده وروح فؤاده وعصا هرمه، كانت ابنه الوحيد، أخذت حينها أنظر للسماء متأملةً، فتراءت لي أوجهٌ مخلوقة باكتمال وذات جمال، تضحك لي وتبتسم، فابتسمت لها ابتسامةً تلاشى بها الظلام الكثيف الذي حجب عن روحي كل شيء يتوهج منه الأمل والطمأنينة وتوهج نورًا أضاء قرارتي ونبتت الزهور بقلبي التي تفعم برائحتها صدري، فأثلجت صدري وأثلجتني، إنه ذلك اليوم المقدس، عليه السلام، الذي عاد فيه زوجي وضمني، ضمة الغريق للمنقذ، ضمة الحبيب بعد الفراق والاشتياق، ضمة جهنم للمخطئين المذنبين، فاشمئزيت ووليت وجهي للجانب الآخر ولم أعبأ به، أخذ يعتذر ويتوسل لي وبللت دموعه وجهي ويداي وجيدي وأعلى نهدي.

- سامحيني فأنا أخطأت، سامحيني.

توسله فطر قلبي، فتوغلت عاطفتي وتضخم ضميري، عاطفتي وضميري يسكناني كعاهرة لا ترغب في التوبةِ، فقبلت وجهه وسامحته، لقد تمثل في صورة ملاك خاشع تائب بلا ذنوب ويطلب مني أن أغفر له، فغفرت، ومن أكثر الناس غفرانًا سواي؟

تقلصت أفعاله كلها داخلي إلى مواقف عابرة يمكن نسيانها، وفي اليوم التالي أهداني عَقْدَ شقة فخمة بإحدى الأماكن الراقية، ربما أراد أن يعوضني عن جفاء السنوات المنصرمة، ربما أراد أن يوقع على ندمه وتوبته بقبول توقيعي على هذا العقد، وحتى يؤكد لي إخلاصه أصر على ذهابي في نفس اليوم إلى الشهر العقاري لكي أقوم بتسجيلها باسمي بشكل رسمي، وتناولنا غداءنا في مطعم راق يقدم أطيب الوجبات بجانب المعزوفات الرومانسية!

وعشنا في سعادة وسرور حتى بلغت حياتنا أوج الهناء، يبدأ يومي كأميرة مدللة وينتهي بسيموفونية، وفي ساعة من أحد الأيام السعيدة أبلغني زوجي للتأهب لزيارة ضيف قادم من ألمانيا غدًا وبرفقته زوجته، كما أخبرني أنه جاء في أمر هام وسيمكث في مصر مدةً لا تقل عن شهر، ويجب أن نقدم له كل الصفات الوديعة ونكرمه ونحسن استقباله، ذهبنا إلى المطار في صباح اليوم التالي كي نكون في استقباله هو وزوجته، مكثنا في صالة الانتظار العشر دقائق الأولى، أتخيل زوجته بيضاء ذات شعر ذهبي وعينين زرقاوين وترتدي ثيابًا قصيرةً تُظهر ساقيها وذراعيها، وأردد الجمل في سريرتي التي رتبتها كي أستقبلها بها والتي حفظتها بالإنجليزية الركيكة، وأذكر نفسي أنه عندما يدَّعي الأمر لقول

thanks يجب أن أخرج طرف لساني وأغير من نطقها الذي كنت أنطقها به فيما مضى، يقطع رنين هاتف زوجي تخيلاتي، قفز من مكانه واندفع خارجًا، هرولت خلفه وحاولت أن أفيقه، وحين نظرت لأساريره وجدتها قد تغيرت وطغى عليها الغضب وارتسم يأسٌ مريرٌ فسألته بقلق عمَّا حدث، لم يجِب وطلب مني أن أعود وأنتظره في نفس المكان، عدت إلى المقعد وهويت عليه بقلق، أبصرت طفلةً لا تتعدى الثلاثة سنوات، خرجت من إحدى الزوايا، يجذبها وميض سلسلة ذهبية علقت كزينة في حقيبتي، تقترب نحوي وتدنو منها، تلمسها بكفيها اللذين ظهرا لي كلؤلؤتين جاذبتين، ضممت عليهما قبضة يدي، تطلعت لي بنظرة بريئة، نظرة لا يمكنك أن تتجاوزها بهدوء، اجتاحني شعورٌ جارفٌ لتقبيلها، حملتها بين يدي وداعبتها ثم أبصرت رجلًا يهرول وقد كان يبدو أنه يبحث عنها ويبدو عليه القلق، وكان يهاجمه شعور الغريق ويواتيه إحساسٌ بأنه فقدها للأبد، لكن كل هذا كان مجرد قلق عابر طاف بفكره وتلاشى حين أبصرها بين يدي، فشرع قائلًا بتلهف وهو يدنو منها مناديًا بصخبٍ:

- ريتاج.

أخفت الطفلة رأسها في ثيابي، سألها بهدوءٍ:

- مش عايزة تيجي لبابا؟

ثم استطرد: عيب كدة، طنط هتزعل منك.

وأثناء ما كان ينتزعها من بين يدي شعرت بطاقة هائلة من الحب الذي لفحني فجأةً وكأنه حبس منذ زمن بداخلي وكان على أهبة الانفجار، ضممتها إليَّ، نظر الرجل ليدي التي تشبثت بها، خمدت موجة الحب بداخلي حين تذكرت أنها طفلة ضلت طريقها وها هي تعود إلى أحضان أبيها، تطلع لي الرجل بابتسامة شكر وطلب من طفلته أن تودعني، ابتسمت لهما، وما لبثت وإذ أتفاجأ بزوجي يقف غاضبًا وقد عاد إلى سخطه الذي كان لا يملُّ منه حتى في اللحظات التي لا تتطلب سوى أن تكون لطيفًا، حملق في وجهي بوجه متغضن، منقبض، وحدجني بنظرة شك مريعة وتساءل في عجل: مين ده؟

ثم وجه كلامه للرجل بعصبية: واقف تعمل إيه مع مراتي؟

تلاشت ابتسامة الرجل في سرعة خاطفة وتطلع إلى زوجي فلم يرَ سوى وجه مزمجر دون سبب، ونفس كئيبة يختلط فيها الصفاء بالضباب ويتساوى كلاهما، فاختلجت أهدابه وبادر بالاعتذار قائلًا:

- أنا آسف إذا كنا سببنالك أي مشكلة.

- الكلام معايا أنا ولا مش مالي عنيك.

وحين خمدت حدة الشجار وذهب الرجل بعد أن اتسع صدره وشرح لزوجي الأمر الذي جعله يقف يحدثني ويبتسم لي، قبض يديه على يدي وقادني إلى السيارة ودفعني داخلها بعنف كطفل عنيد مزعج أراد أن يتخلص من إزعاجه وأغلق الباب، وعاد هو إلى صالة الانتظار، جلست وأنا أشعر بأن غصة مليئة بالدموع تقف بمنتصف حلقي، ها هو

زوجي يعود إلى جنونه، وعاد الشك يداعب أفكاره وعادت القسوة تهدهد صدره، لقد عادت الحياة المتأزمة تستنزف دمائي وتحطم روحي، لماذا يعود الماضي؟ ألم يكن بالأمس مجرد طاغوت ثقيل! ولماذا يعود زوجي؟ ليكون جلادًا كما اعتاد، ويريدني أن أعود ذليلةً، ضعيفةً، رباااه كيف يمكنني أن أعود إلى مستنقع من القمامة بعد أن مكثت في بساتين الزهور الجميلة؟!

عاد زوجي ودكتور «جيفري» بعد نصف ساعة ولم أرَ زوجته، فقط هو يمسك بحقيبةِ أغراضه ويضم على حقيبة صغيرة قبضة يده الأخرى كما تدلت من فوق ظهره حقيبةً صغيرة أيضًا بسعادة، تضم بعض أغراضه الشخصية، جلس زوجي أمام عجلة القيادة وجلس دكتور «جيفري» بجوار زوجي الذي انجرف بالسيارة متعجلًا، جففت دموعي متمنيةً ألَّا يكون الكحل اختلط بالدموع وهو حتمًا أملٌ بائد، اختلست نظرةً إليه في مرآةِ السيارة وغرقت في تفاصيل الشوارع المترعة بالباصات المزدحمة والشوارع المختنقة بالمدنيين الذاهبين إلى أعمالهم وقضاء أشغالهم رغمًا عنهم، والجنود الذاهبين إلى معسكراتهم والعائدين منها أيضًا، والمشردين الذين ينامون بالأزقة أو أسفل الأسوار، والبائسين المستعيذين من أنفسهم التي توسوس لهم بالانتحار، مررنا أيضًا على أكوام من القمامة والنفايات التي رقص الذباب فوقها بشهية، حينها نسيت كل شيء واختلست النظر إلى دكتور جيفري، خشيت أن يكون رأى ذلك المنظر وتمنيت حين يعود إلى بلاده أن تقتصر ذاكرته على الأماكن الجميلة فقط. اللعنة، لماذا أحب مصر إلى هذا الحد رغم أنها

لم تمنحني شيئًا من قبل؟ لكن أعلم أنها أجمل من كل تلك الحياة التي مزقتني. وقف زوجي أمام مطعم متخصص في المأكولات الأجنبية، سأله زوجي مداعبًا:

- هل ترغب بلحم الخنزير؟

فأجابه بلكنة جذابة قائلًا:

- لا أحب لحم الخنزير على الإطلاق، إنني أشمئز منه.

ثم أدار زوجي رأسه قائلًا:

- إنها زوجتي، أصرت على المجيء معي لاستقبال زوجتك ولم نكن نعلم ما حدث. أردت أن أسأله عن الشيء الذي حدث وجعلها تلغي زيارتها لمصر لكنني صمتُّ، ابتسم لي وصافحني قائلًا:

- مرحبًا.. سررت برؤيتك.

رددت عليه بإيماءة وابتسامة هادئة، ثم ترجلنا من السيارة ودخلنا المطعم الذي كان يقع يسارًا مع واجهات زجاجية ومن الداخل اتسع أكثر مما يبدو عليه من الخارج، وكان المكان بأكمله يرى النيل عن كثب، جلسنا حول طاولة، جاء النادل ووقف متأهبًا للخدمة، اختار كلٌ منا الطعام الذي رغب فيه، وذهب النادل لإحضاره، تطلع دكتور «جيفري» إلى النيل بنظرة ناطقة بالإعجاب، التجأت في خضوع إلى النظر لسر جماله، طافت كل حواسي حوله، لم تتعكر مياهه من فرط ما مر بها أو بهت بل زاد بريقًا وتوهجًا، وحين انثنى دكتور «جيفري» بنظره إلى زوجي ظننت أنه ربما أدرك أن جماله تخطى حدود استيعابه.

سألت زوجي هامسةً له:

- هو مش بيعرف عربي خالص؟

* بيعرف على خفيف.

سأل دكتور «جيفري» عن المسافة التي يبعدها الفندق الذي سيمكث فيه، فاقترح زوجي عليه أنه يمكث بالشقة التي أهداها لي، شرح له كم هي مرتبة وجميلة وأفضل من الفندق، كما أنه لم تكلفه شيئًا، وسيكون بأمان أكثر فيها، ثم أضاف زوجي قائلًا:

- أنت هتقعد فيها لحد ما تخلص أبحاثك وشغلك وبعدين أنا مش عايز المدام تزعل ده حتى من يوم ما قولتلها أنك أنت والمدام جايين تزوروا مصر وهي اللي اقترحت عليا الاقتراح ده.

- مش كده يا مدام.

* آه طبعًا، سأكون سعيدة إذا قبلت هذا العرض. قولت ذلك بلغة إنجليزية ركيكة.

يعلق زوجي قائلًا في سخريةٍ:

- هذا العرض!!

- يا ريتك يا «نبض» ما اتكلمتي، بلاش إنجليزي، الراجل بيفهم عربي كويس، بلاش فضايح أكتر من كده.

شعرت بالخجل لكوني تعجلت وتكلمت بإحدى الجمل التي أحفظها والتي من المفترض ألَّا يكون هذا هو سياقها، ومع إصرار زوجي وافق دكتور «جيفري» أن يمكث في شقتي التي أهداها لي زوجي، وحين انتهينا من وجبة الطعام، همس زوجي للنادل ثم طلب مني أن أنتظرهما ريثما يعودان، وقاد دكتور «جيفري» إلى غرفة صغيرة داخل المطعم، مجهزة على نحو كامل ببراد وميكرويف وآلة لصنع القهوة، يبدو أنهما لا يرغبان في الحديث أمامي، وبعد خمسة دقائق دخل «أدهم السلحدار» بكامل هيبته وخلفه اثنان من الحرس اللذان لا يستغنى عنهما أبدًا، دلف «أدهم السلحدار» إلى نفس الغرفة التي يوجد فيها زوجي ودكتور «جيفري» ووقف حرسه أمام الغرفة وكأنهما يحرسان الكلمات التي يتحدثان بها في الداخل خشية أن تنساب من أسفل الباب لتستقر في إذن أي عابر، ركزت نظري عليهما بحدة حتى مضى أكثر من نصف ساعة، خرج «أدهم السلحدار» وبعد ١٠ دقائق من تركه المكان خرج زوجي ودكتور «جيفري»، عدنا إلى الشقة، أخذ زوجي مفتاح الشقة التي أهداها لي، وترك معي الحقيبة الصغيرة التي كان يضم عليها دكتور «جيفري» يديه معي، وطلب مني ألَّا أفكر أن أفتحها رغم أنه يعلم أنها مغلقة بكلمة سر ويستحيل فتحها دونها، ثم ذهبا. جلست أفكر بفضول عمَّا تحتويه الحقيبة، وتمنيت لو أن لي القدرة على فتحها.

في مجلس خرافي داخل قصر خيالي، جلس «أمجد الساحلي» حول طاولة أنيقة وضع فوق فرائها ثلاث مزهريات لزهور الأيكا، كان منكبًا على كتاب لاتيني، انعكس عليه من إحدى الجدران الزجاجية التي ترى

عبرها فناء المنزل بوضوح انعكاس لموجات بركة مياه شفافة وصافية بشكل فريد وقد يبدو أنه تم غربلت الماء داخلها بعناية، وكان القصر كله مكسوًّا بالبذخ بلا حدود، وفجأةً دار برأسه ثمة شيء، فأغلق الكتاب ونزع نظارة القراءة ووضعها فوق الكتاب وشرد بذهنه في أمر ما وكأن هذا الأمر لا يرد ولا يمكنه تأجيله، نهض تاركًا مجلسه ودلف إلى فناء القصر الذي من خلاله توجه إلى ردهة صغيرة، يوجد بمنتصف جدارها باب صغير، دخل عبره إلى قصر آخر ولا أعلم إذا كان بالفعل قصرًا أم مجرد إسطبل للخيل، اقترب نحو الخيول، تأملها بقسط من الارتياح لا يدري كنهه، ثم توقف عند مهرة جميلة، كان يقوم بتدريبها على بعض السلوكيات مدرب للخيل، لكن المهرة كانت عنيدةً بعض الشيء، فأمره «أمجد» أن يتركها له كي يقوم هو بنفسه بترويضها، مهرة جميلة حقًّا، لكنها تبدو عنيدةً وغبيةً، علاقته بحب الخيل تشبه كثيرًا علاقته بحب «ليال» إلَّا أن الخيل يحاول ترويضه بالعنف الخالي من المشاعر العاطفية رغم عشقه الذي يكنه له، اعتلى «أمجد» ظهر المهرة واندفع إلى الأمام اندفاعًا سريعًا مما جعل خصلةً من شعره الناعم تسترسل على جبينه اللامع، وكان المكان يتكون من هذا الإسطبل وعلى بعد كيلومتر تقريبًا يقبع القصر الآخر، وتكوَّن ديكور وجدران القصر من جدران مكسوة بالرخام الصقيل واللامع والذي يميل لونه إلى اللون البيج الداكن وتخللته خطوطٌ بيضاء مما جعل الجدران تكتسب جمالًا أخاذًا وكان الطابق الأول يمثل جناحًا خاصًّا مع كافة مكملاته التي تجعل منه بيتًا كاملًا ومستقلًا وقد ضم عددًا كبيرًا من

الحيوانات المتوحشة المحنطة كديكور والتي قام أمجد على مر سنوات بتحنيطها بنفسه، وعشرات من التماثيل التي تجسد الأجساد عاريةً تمامًا، بكل تفاصيلها وتحف أثرية ولوحات غامضة، كان المكان كله غريبًا ومريبًا إلى حد يفوق الخيال. في الساعة العاشرة كان في مكان عمله الهام الذي يعمل فيه مستشارًا لإحدى الجهات الهامة جدًّا، منكبًا على ملفات وظروف وأوراق كثيرة جدًّا وشارة تحمل اسمه (أمجد الساحلي- المستشار الرئيسي لتلك الجهة) لقد عرف كيف يرتقي داخل عمله السياسي حتى وصل إلى منصبه هذا في فترة زمنية قصيرة، معترفًا به من قبل الجميع الذين يُبدون أسفهم دائمًا لإزعاجه نظرًا لمهامه الهامة وأهميته، وقبل أن يرتقي لذلك المنصب كان قد عزم في قرارة نفسه على أنه سيتوغل حتى يبلغ القمة، فهو لا يؤمن بالبقاء بمنتصف الأشياء، القمة أو القتال من أجلها.

تلقى رسالةً صوتيةً من (السكرتير) الخاص به عبر (الانترفون) يبلغه فيه بانتظار شخصين منذ أكثر من ساعة، ويصران على مقابلته الآن، وحين نظر في شاشة كاميرات المراقبة وتراءى له ضيفاه، بلَّغ (السكرتير) أن يسمح لهما بالدخول، فدلفا إلى مكتبه، كان أحدهم رجلًا متوسط القامة، خفيف الحركة، والآخر يميل إلى البدانة والقصر، نهض عن كرسيه لكي يستقبلهما وجلس الثلاثة في صالون المكتب، أبدى أحدهما تأسفه واستكمل الآخر موضحًا الأمر الذي جعلهما يستعجلان مقابلته داخل عمله السياسي وعلق أحدهما قائلًا:

- الموضوع مكانش ينفع ناخد قرار فيه من غير ما نرجعلك، وكمان مينفعش نستنى عليه أكتر من كده.

- قوم تيجوا هنا عشان تتكلموا في حاجة زي دي؟

يقول ذلك بعصبية مكتومة وغيظ واضح، فيرد الآخر قائلًا بطريقة لا تخلو من التهديد:

- وفيها ايه يا أمجد بيه؟ ما حضرتك مفهمنا أن الدولة عندها علم بشغلنا وبتصرف المليارات دي على حاجات سرية وعسكرية للإفادة الشاملة، و...

يقاطعه أمجد بعصبيه قائلًا:

- كلمة تاني يا «بلال» وهتصرف تصرف مش هيعجبك، ومش معنى إن الدولة بردو مخلياك رجل أعمال وصاحب مليارات تصدق نفسك وتفتكر أنك صاحب المليارات دي بجد، وتنسى أنك مجرد خيال مآتة عشان النسور والغربان اللي حاطة عنيها على البلد بردو و...

يقاطعه الآخر قائلًا:

- خلاص يا أمجد بيه «بلال» مبيقصدش أي إساءة لجنابك، وإحنا بس قلقنا من الحكاية وأول مرة تستعصي معانا حاجة، وده طبعًا لقيمة وأهمية العملية دي، ومش عايزينها تضيع من إيدنا لأن كله كوم والعملية دي كوم تاني.

يرد «بلال» قائلًا بصوت مختنق وشعور مصطنعٍ:

- آه والله قول له يا «غسان»، ولا أنا غلطت اللي قلبي على البلد، وعلى سيادتك يعني وبعدين يا أمجد بيه كلنا كنا زمان فقرا ومحدش كان فينا بيحتكم على ١٠ آلاف حتى فبلاش تفترى على الغلابة اللى زينا

* خلاص نتقابل في بار الفندق عند «بلال» الساعة ١٠.

انتهى الحديث على ذلك الاتفاق بينهم ونهضوا وهم يعتذرون مرةً أخرى ويتأسفون وغادروا المكتب وبقى أمجد متذمرًا، واختنقت أنفاسه في حنجرته، فهو لا يحب أن يتذكر سنوات فقره وحياته الأولى لقد ذبحها بلذة وسعادة ودفنها في هُوّة ساحقة، عاد إلى كرسي مكتبه ووقف بجواره يفكر في قلق، ثم ضغط زرًّا وأبلغ السكرتير بإلغاء كل المواعيد التي يمكن إلغاؤها، وأن يجعل اليوم مقتصرًا على المقابلات الهامة جدًّا فقط، وبعد بضع دقائق كان منكبًّا على أوراق، وكان يشعر بالتوتر وقد خارت قواه النفسية وتملكه شعورٌ بفقدان الرغبة في العمل، مما جعله يثب عن مقعده، ويقف خلف زجاج شرفة المكتب، وتنهد بعمق ثم خطا خطوتين إلى باب المكتب وكأنه أراد أن يترك المكتب والعمل ويفر إلى الخارج، ثم عاد ليذرع أرض الغرفة جيئةً وذهابًا وهو واضعٌ يديه في جيبه ثم أخرج يديه من جيبه والتقط هاتفه من فوق سطح مكتبه تأمل رقمًا عليه بشرود وبعد التردد قام بالاتصال به.

- أزعجتك؟

* بالعكس، عمر ما كان اتصالك ليا إزعاج.

- عندك مانع تقابليني دلوقتي حالًا؟

جلست «ليال» و«أمجد» حول طاولة دائرية الشكل في أحد الكافيهات الفريدة والنادرة لتميزها بما تقدمه من هدوء وراحة لعملائها، وقد قدم الكافية في ذلك اليوم أغنية falling للمطربة Julee cruise وكانت تغنيها امرأةٌ لبنانية تعمل كمطربة في ذلك المكان، وكان لصوتها سحرٌ يمزق أشرعة الحزن، يأخذك في رحلة لحدائق الفضاء لترى وتشاهد ما لا يمكنك أن تراه، يخرج الكلام من فمها مرصعًا بالماس، تركت مكانها وتقدمت بضع خطوات لتصبح قبالة المائدة التي جلست عليها «ليال» و«أمجد»، فكانت عن قرب أكثر جمالًا، وأنصتت الآذان البشرية التي أتت من أجل أن تُقْتَل بسوط صوتها والتي وقعت في حبه وقوع الموت للشهيد، وعلى عزف الباتري الذي عزف بنعومة واهتزت له الأحاسيس وبكل هدوء أخبر أمجد «ليال» أن تكون على استعداد لمفاجأة ستسرها كل السرور، سرور المريض بالشفاء، وكان ما يقصده خبر اختيارها سفيرةً للسفارة المصرية بألمانيا، وبعد يومين وعلى نحو مفاجئ وبشكل غامض حدث هرج ومرج وقلق ذريع داخل وزارة الداخلية، ولم يتسن لأي أحد أن يعلم السبب كما لم يعلن عن السبب من أي جهة رسمية، وعلى ما أذكر بدأت تنكشف أحداث الواقعة عندما عقد اجتماع طارئ برئاسة وزير الداخلية، وفي نهاية الاجتماع قرر الوزير استدعاء أحد أفراد رجال ٩٩٩ بشكل سري للغاية والاستعانة به في واقعة قد تبدو الأولى من نوعها، حيث نعلم أن تلك الفرقة ليس من شأنها تلك المهام، وجميع مهامها عمليات خارج البلاد، ليترك له قيادة تلك المهمة مع اللواء «شكري» الذي اقترح على الوزارة أن تستعين

بذلك الرجل حيث يعرف عنه الذكاء والتكهن، كما أن تاريخه حافلٌ بالبطولات إلى درجة أكرهت الجميع على إجلاله وكان مندهشًا إلى درجة جعلت كل من يعرفه يؤكد حبه واحترامه، ذلك كل ما كان في مستطاع المرء أن يصفه به، وبعد ثلاث ساعات كان الوزير يجلس في مكتبه منكبًا على ملفه ليدرسه بذهن مستيقظ وبدقة بالغة، في ذلك الوقت كان هناك رجلٌ داخل المبنى متوجهًا إلى مكتب وزير الداخلية، وهو قرابة الخمسة والثلاثين من العمر، رجل يميل إلى الطول، حليق الذقن، حليق الشعر، أنيق الملبس، نشيط الخطى، تبعه «حسام» بخطوات رشيقة، توقف أمام باب المكتب وطرقه طرقةً صماء ثم فتح الباب مباشرةً مما ينم عن انتظار الوزير بحماس واستعداده لتلك المقابلة عن عجل، دلف «حسام» إلى الداخل وأغلق الرجل خلفه الباب وعاد إلى عمله، ألقى «حسام» التحية العسكرية بهمة، ولم يقرر الجلوس قبل أن يسمح له الوزير بذلك، نظر له الوزير بعين واحدة وهو يهدهد رأسه كما كان أيضًا مندهمًا في دراسة الملف ثم أشار بيده نحو المقعد الذي أمامه، وقال بنبرة هادئةٍ:

- اتفضل يا حضرة النقيب أقعد.. اتفضل يا ابني.

جلس «حسام» وهو يشعر بالقلق وأن هناك حدثًا غير مبشر في انتظاره، تحدث الوزير قائلًا:

- ما شاء الله تاريخ بطولاتك يشرف بجد.

ونظر في عينيه بصرامة وتابع يقول:

– عشان كده أنت هنا وقررنا استدعاءك وعشان ألخص عليك أي أسئلة أو فضول لأن الوقت مش في صالحنا والموضوع مش هيحتمل أي تأخير أكتر من كدة، فالموضوع باختصار في بلاغ جالنا بخطف ٣ أطفال أعمارهم ما بين ال ٣ ل٤ سنين، وبعدها جاتلنا إشارة إن الأطفال موجودين على بعد ٩٠ كيلو من بداية الصحراء الشرقية، يعني في عمق الصحراء نفسها، على الفور اتحركت قوة من الداخلية مع طيارتين لتمشيط المنطقة هناك، الداخلية لاحظت مبنى غريب في قلب الحتة دي، والجدران والسقف والمبنى كله مبني بالخرسانة، فالقوة اللي كانت بقيادة العقيد أحمد السكري قررت أنها تدخل المكان من جوة عشان تبحث عن الأطفال وتستكشف المكان، وكل اللى دخلوا مخرجوش ومحدش عارف إيه اللي بيحصل بالظبط، والمبنى ده اتبنى أمتى وإيه غرضه، طبعًا ممكن يكون عبارة عن فخ لخداع الداخلية الغرض منه اصطياد أكبر عدد منهم لغرض مثلًا المساومة على عناصر إرهابية أو تصفيتهم، حاليًا في المكان ده ١٢ من أفراد الداخلية و٣ أطفال، والله أعلم بحالهم دلوقتي، دول مهمتك أنك ترجع بيهم وتستكشف كل خطوة في المكان عشان نقدر نحل لغزه.

صمت الوزير بغتةً ثم أردف قائلًا بصوت مرتفع:

- صحيح إحنا حاولنا ندخل كاميرات تصور المبنى من جوه بس لقيناه من جوة عبارة عن متاهة وطبعًا مش هينفع ندخل حد تاني عشان نصوره

من غير خطة مدروسة، وفي وجود قوات مشددة، ولأن كمان المبنى مبني على ٢ كيلو متر مربع كاملين، يعنى في احتمال أن القوة اللي دخلت تاهت بين المتاهة، ومعرفتش تخرج تاني لأنها مش متدربة على المتاهات الهندسية.

انطلقت أربعة مدرعات عسكرية، مجهزة بكامل الاحتياجات الخاصة بالخطة التي وضعت سلفًا، وقد اختير فريق من أكفأ رجال العمليات الخاصة بقيادة اللواء «شكري» ونائبه في تلك العملية النقيب «حسام»، وعلى بعد ٩٠ كيلو متر داخل الصحراء الشرقية، توقفت المدرعات وترجل الجميع مرتدين ملابسهم العسكرية المجهزة لمثل تلك العمليات، رافعين أسلحتهم نحو المتاهة التي بنيت بشكل محير ولأغراض بعضها ظاهرٌ والآخر غامض، حدق «حسام» بها ثم أمر الجميع بالتريث وأن لا أحد يخطو أو يقترب أكثر من ذلك، اقترب هو بمفرده ولغرض غامض لم يكشف عنه، وأمعن النظر فيها بدهشة ثم تراجع للخلف، تراجع حتى خمسة عشر مترًا تقريبًا ووقف شاخص البصر بالمتاهة وهو يفكر في أمر ما وكان يبعد أكثر ثم يقترب أكثر، وسار على هذا النحو بضع دقائق، فلما استبد فكر اللواء «شكري» إلى حيرة مريرة، مريبة وقلق قذف بداخله كرعد، عزم على أن ينهي ذلك الأمر فدنا منه وطلب منه أن يكشف له عما يدور في عقله، سأله عن غرضه من سيره الخمسة عشر مترًا جيئة وذهابًا، فأجابه «حسام» دون أن يلتفت إليه وهو شاخص البصر في هذا المبنى الذي يشبه المتاهة قائلًا بثقةٍ:

- عايز حضرتك يافندم تبص كويس على شكل الممرات دي.

وكان «حسام» يقصد الممرات التي بدأت بها المتاهة، وكانت أربعة ممرات مختلفة الأحجام والأشكال، مد اللواء «شكري» بصره إلى الممرات وحاول أن يستشف ما يقصده «حسام»، لكن كان بصره فقط هو ما يرى وليست بصيرته، فانثنى ببصره مرةً أخرى إلى «حسام» وسأله أن يوضح له ما يقصده وأن يكشف عما يرى، كانت الممرات كلما ابتعدت عنها أخذت أشكالًا لأحرف، فكان الممر الأول يشكل حرف (d) والممر الثاني يأخذ شكل حرف (s) والممر الثالث يأخذ شكل (≥) والشكل الثالث يأخذ شكل حرف (o) فأخذ «حسام» يشرح للواء شكري الأمر ببساطة، وأخبره أن تلك الأحرف تشكل قانونًا فيزيائيًا للديناميكا الحرارية، وأنه لا يمكن أن يكون الأمر مجرد صدفة، وأن هناك غرضًا من هذا الأمر.

- وماذا يعني ذلك القانون؟ (سأل اللواء شكري حسام(

* القانون ده بينبهنا أن الفوضى لا بد من أن تزداد مع مرور الزمن وكمان بيحاول يكشف لينا عن سؤال لماذا يسير الزمن إلى الأمام، فأعتقد كمان أن الفوضى والزمن هنا رمزان لرسالة غامضة.

- طيب وإيه الهدف من أن..

قاطعة «حسام» قائلًا بحزم:

* الموضوع أكبر من خطف أو شوية إرهابيين، لأن لما قربت من المتاهة لفت نظري أن في ٣ مسائل فيزيائية منحوتات على الجدار اللي في النص ٢ منهم مشطوب عليهم، والأخيرة بس هي اللي واضحة

وكأنهم رسايل مشفرة، ولفت نظري كمان أشكال الممرات اللي بتكون واضحة أكتر لو بعدت عنها وبصتلها من بعيد.

- طيب إحنا المفروض نعمل إيه دلوقتي؟ نغير الخطة ولا هنتصرف إزاي؟

* مش هنغير حاجة، بس هنأجل شوية لحد ما نحل المسألة الموجودة.

- طيب أنت تعرف تحلها ولا نستعين بحد دارس فيزياء.

* خليني أحاول لأنها من الواضح أنها كمان مسألة صعبة ومش أي حد يحلها.

****

اندفع «سعيد» بسيارته على الفور عندما استقبل مكالمةً هاتفيةً أخبره أحدهم أن يحضر إلى عنوان أعطاه إياه وقد رأى جمهرةً من الناس محتشدة حول الصيدلية التي ترجل من سيارته أمامها وغمغم أحدهم قائلًا: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وحين مضى وشق الطريق إلى الداخل أمعن النظر إلى الرجل الذي احتشد المارة لصراخه وبكائه، كان شابًّا قد تجاوز الثلاثين من عمره قوي البنية عريض المنكبين، طويلًا بضخامة وعيناه سوداوان داكنتان، وعلى وجهه تطغى البراءة والهدوء، وكان الطبيب الصيدلي يوضح له بهدوء وكأنه يخاطب طفلًا عنيدًا أن الدواء الذي رغب في شرائه لوالدته ليس متوفرًا لديه، فكان يزداد عنفًا ويعصف الغضب بفؤاده، فيرتجف جسده ويبكي بكاءً مريرًا، بكاءً مختنقًا غير قابل لأيةِ محاولة لإسكاته، دنا منه «سمير» وغمره ببضعِ كلمات من التي تهدهد الصدور وتربت على قلبه بحنان، كان كلامه له عامرًا بالرحمة والشفقة وكانت المرة الوحيدة الذي يتراءى له «سمير» على هذا النحو غاضبًا ومكفهرًا ولا يلين أو يعرف التسامح، فتعجب «سعيد» من جمود الرجل وإصراره بطريقة رصينة على ألَّا يلتفت لأية محاولة لإقناعه بتغيير موقفه وكبح غضبه، وتساءل: ما الذي حل به ليتحول إلى ذلك التوحش من الطيبة التي عهدها فيه منذ أن التقى به، وقد بذل «سعيد» جهدًا كبيرًا حتى بث الطمأنينة في داخله حين أخبره أنه سيوفر له الدواء من مكان آخر، حيث كان الدواء غير متوفر، والحصول عليه أمرٌ شاق، قاده «سعيد» إلى منزله مشفقًا عليه من الانهيار الذي كان عليه، وكانت تلك المرة الأولى التي يدخل فيها منزله

وكان منزلًا عتيقًا ذا باب مقوس، ونافذتين ذوات قبضان حديدية، ومن الداخل طابقين كل طابق احتوى على غرفتين وفناء صغير، وطرقة تربط بين المطبخ والحمام وباقي المنزل، استقبلته والدته استقبالًا حافلًا بالدعوات لما بذله من صبر وعطاء ومنح لابنها الوحيد الذي تعلم أن لديه كل الخصائص التي تؤهله لأن يكون معاقًا ذهنيًا عن غيره من أسوياء الناس، فهو دائمًا متسامحٌ كآلهة تصدح وتصرخ في الشوارع قائلةً "إن لم نكن نحن المتسامحين الراحمين فما هي الألوهية؟ كما كان يمتلك الطيبة الممزوجة بالسذاجة وحسن النية للدرجة التي يرى بها كل البشر أسوياء محبين للخير كارهين للشر، والدرجة التي يراه بها الناس مجرد أضحوكة لا قيمة لها، فلا أحد يدرك ما بداخله من نقاء وصفاء، وهذا ما استشفه «سمير» في أول لقاء جمع بينهما عندما اصطدمت سيارة الصحفي «صلاح محجوب» بسيارة «سمير» ذات يوم، وكان سعيد يجلس بجوار « «صلاح» محجوب» حيث تربطه صلة قرابة به كما أن «سعيد» حاصلٌ على الدكتوراه في الفيزياء وقضى أغلب حياته بألمانيا يعشق مهنة الصحافة؛ لذلك قرر أن يستقر في مصر ويعمل فيها حتى وإن كان بشكل هوائي فقط، ترجل «صلاح محجوب» من سيارته غاضبًا وتشاجر مع «سمير» ورغم ضخامة جسد «سمير» كان واقفًا كطفل بريء، ولم يدافع عن نفسه، ولم يسدد الضربات العنيفة والقوية التي تلقاها من «صلاح محجوب»، حينها قرر «سعيد» أن يتدخل ويقنع «صلاح محجوب» أنه صديقٌ لديه ويعرفه بشكل شخصي، وقرر أن يمنحه الصداقة ورغم ضخامة جسده، فإنه من

الواضح لديه عقل طفل بامتياز، وقد شرحت له والدته كم هو سعيدٌ لأن أصبح لديه صديق، فـ «سعيد» هو الصديق الوحيد من البشر الذي قرر أن يمنحه ذلك الشعور ويمد له يد العون وأن يمنحه موطنا لأحلامه، ولطالما تمنى أن يكون له صديق دون أن يتحقق واقعًا، لذلك كان فرحًا. كما أخبرته أن لديها ستة علب من نفس الدواء وستكفيها مدةً لا تقل عن ثلاثة شهور، لكن خوفه عليها ولأنه يعلم أن بدونها ربما سيصبح مشردًا ولا مأوى له غيرها، كان دائمًا مصابًا بهوس وهاجس بسبب مرضها، ويخشى عليها دائمًا، وقد كان «سعيد» يشكل السعادة لكل من يحتاجها ويمتلك قلبًا نقيًّا؛ لذلك كان يعرف جيدًا معنى النقاء الذي يحمله بداخله سمير، وأثناء تناولهم وجبة الغداء التي صممت والدة «سمير» عليها بكل جهد، صمت الجميع فجأةً اندهاشًا من تلك القبضة الثقيلة التي أخذت تطرق الباب بقوة، قفزت والدة «سمير» بقلب واجف وبادرت بفتح الباب، كان رجلًا في أواخر العقد الثالث من عمره، يرتدي بذلةً أنيقةً ذات لون رمادي داكن، وسأل بحدة وهو يفتش بعينية فيما امتد أمامه عبر الصالة وسأل:

- دكتور «سعيد الطوخي» موجود هنا؟

رحبت المرأة به، وأدخلته وأجلسته في الصالون، وقد ظنت أنه صديقٌ لضيفها أو على معرفة سابقة به، وخطت إلى داخل غرفة المائدة وأبلغت «سعيد»، وخرج على الفور وهو في أشد الاندهاش، فلا أحد يعلم بتاتًا بوجوده هنا، وسأله سعيد بتعجب:

- مين حضرتك؟

حدق الرجل فيه ونهض من مكانه وهو يخرج من جيبه بطاقة العمل ومدها أمام بصره دون أن يتفوه بكلمة، نظر «سعيد» في البطاقة بتمعن، ثم نقل بصره إلى الرجل ودلف إلى الخارج معه، وبعد ثلاث ساعات من هذا اللقاء كان «سعيد» يقف أمام تلك المسألة التي نُحتت على أحد جدران الممرات المتواجدة داخل ذلك المبنى الغامض، وقد استغرق «سعيد» نصف ساعة كاملة في حلها، وكان الناتج يطابق أحد عروض الممرات المتواجدة، والتي قرر «حسام» الدخول عبرها لاستكشاف المتاهة، وكان الليل قد زاد من حلكته، وطلب «سعيد» البقاء مع القوة لحين الانتهاء من المهمة، وحين بدأت القوة الاستكشاف وكانت على أهبة الاستعداد لتحرير الأطفال وأفراد الشرطة اللذين سبقوهم، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ولم يجدوا سوى بركة من الدماء والجثث المشوهة للضحايا: الأطفال، أما رجال الشرطة فكانوا جميعًا قتلوا بغاز السرين"V x".

وكان المكان من الداخل كله ملوثًا بالدماء، وكانت هناك أدوات كثيرة من التي تستخدم في الأعمال الشيطانية والسحر، كما وجد نفق يؤدى بعد انعطافات إلي قلب الجبل، وسد الجميع أنفاسهم من الرائحة الكريهة التي انبعثت، وكانت نفس الرسمة متكررةً في الداخل، وقد خارت قوى الجميع من هول الصدمة حين رأوا تلك المناظر التي تنهار من قسوتها ووحشيتها الجبال وهرع الجميع للخارج ليتريثوا قليلًا ويفكروا في الأمر على نحو دقيق.

تخلخل هذا الأسبوع أحداث هامة حيث زار الرائد «هيثم عبد النبي» جريدة «صلاح محجوب» وحدث بينهما اللقاء الذى أشرت إليه سابقًا في حفل «ليال»، كما تواصل «طارق» معي وطلب مني أن أفتح الحقيبة وأقوم بتصوير محتوياتها، والتقى «أمجد الساحلي» مع «بلال» و«غسان» مرتين وكان الحديث بينهما حول خلاف مع الطائفة التي ينتمى إليها دكتور «جيفري» وكانت الحقيبة تشغل تفكيرهم بشكل محير وغامض.

عدت من الخارج وقمت بفتح الباب باطمئنانٍ، انزلق قلبي من صدري وتمزق لأشلاء عندما أبصرت زوجي جالسًا بالريسيبشن أمام التلفاز، اللعنة! ما الذي جعله يعود قبل موعد رجوعه بساعة كاملة، يحدق في التلفاز وأمامه طبقٌ ممتلئٌ بالتفاح، الفاكهة المفضلة لديه، من المفترض أن ينهب نصفه لكن الطبق كان ممتلئًا كما هو، كما أنه يجلس بملابس الخروج، فقط أرخى ربطة عنقه، شعرت بدوار البحر ووجف قلبي وتعاظمت أوجاع معدتي حين استجوبني بنبرة وحشية قائلًا وهو شاخص البصر في المسلسل الذي يشاهده:

- كنتي فين يا «نبض»؟

شعرت بصفعة قوية على وجهى فأجبته بارتباك وتلعثمٍ:

* كنت بشتري حاجة من الصيدلية.

- هه.

ضحك ضحكةً جافة، نطقها فقط بحنجرته ولم يضحكها وكأنه يسخر من إجابتي، صمت برهةً ثم قفز بهدوء من مكانه، وأمسك بتفاحة وبدأ يلقفها من يد إلى أخرى بحنق، ثم أسقطها متعمدًا على الأرض، فاستقرت أسفل الأريكة.

- هاتي التفاحة اللي وقعت تحت الكنبة.

قالها بصيغة الأمر وبنبرة حاسمة وهو يحدق فيَّ كما لو كانت آخر تفاحة في العالم. وبعد قليل من الصمت والتردد وأنا متسمرةٌ في مكاني اقتربت نحو التفاحة التي كانت قد استقرت آخر أسفل الأريكة، وجثوت على ركبتي ومددت ذراعي أبحث عنها، وبدوت في وضع هرة هزيلة فمن السهل أن تضع قدمك فوق عنقها، وهذا ما حدث، شعرت بحذائه يضغط على عنقي، وجاء صوته مكتظًا بغيظ ساحقٍ:

- أنا مش منبه عليكي مفيش خروج من البيت؟

شعرت بحشرجة وغصة تعيقني عن الكلام بشكل سليم، فقلت بصوت مختنق:

- كان عندي صداع ونزلت اشتريت مسكن، حتى ممكن تسأل الصيدلية بنفسك.

قاطعني وهو يضغط أكثر بقدمه فوق عنقي كما لو كانت مطرقةً هوت عليها، فتوجعت بصوت مرتفع، وأردف قائلًا:

- وهو المسكن بتجبيه من العربية المرسيدس S60 اللي بقالها يومين بتستناكي، مرة قدام هايبر angel ومرة تيجي تاخدك من جنب البيت؟

شعرت برجفة وقشعريرة تعتريني، فانتفض جسدي وكأنني وضعت داخل ثلاجة الموتى وابتلعت جثةً، وقلتُ بصوت مرتعش:

- أنت فاهم غلط يا دورغام، دي وحدة صحبتي خفت أكلمك عنها لأنك دايمًا مبتحبش يكون لي صحاب.

قاطعني بعصبية:

- طاب التليفون اللي اشتريتيه جديد والخط اللي خليتي أم محسن تشتريهولك باسمها دول كمان عشان تكلمي بيهم صحبتك؟

رفع قدمه عن عنقي، وقال بلهجة هادئة ونبرة غامضةٍ:

- قومي يا «نبض» وهاتي التفاحة.

نهضت وأنا أمسك التفاحة بين أناملي المرتعشة، وأردفت بصوت مرتعشٍ:

- أقسم بالله أنت فاهم غلط أنا..

قاطعني بعصبية:

- ومش محتاج أفهم الصح عشان لما بحب أفهم بفهم بطريقتي، حتى وأنا فاهم ممكن أعمل نفسي ولا فاهم أي حاجة، عارفة ليه؟

خطف التفاحة من يدي ودار حولي وأردف قائلًا:

- عشان بستمتع وأنا بشوف الكدابين زي الفار اللي خلاص عمال يغرق وبيدور على قشاية تنقذه، حتى ولو بشكل مؤقت، وحتى لو كانت عبارة عن كدبة ساذجة وحقيرة زيك.

داعب ذقني بيده، ثم وضع التفاحة بفمي، وضغط عليها حتى كدت أن أختنق واستأنف قائلًا:

- مبسوط إن طلعلك أنياب وعرفتي تعضي.

ضغط أكثر على التفاحة وهو يقول:

- عضي يا «نبض»، عضي جامد، بس أبقي افتكري أن مهما حاولتي تعضي، عضتك مبتوجعش زي ما خيالك بيهيألك

ثم ترك التفاحة عالقةً بفمي فسقطت على الأرض واستدار نحو باب الشقة وأمسك بمقبض الباب وأدار وجهه نحوي قائلًا:

- راجعلك، بس أوعي تفكري تهربي عشان هيكون عقابك المرادي موتك، ولأنك مش هتعرفي تهربي من الأساس.

وقفت حائرةً، ثقيلةً كصخرة عملاقة، تائهةً كمن فقط ذاكرته وسط الصحراءِ، مضطربة أنفاسي، ووقفت كعجوز لا تقوى على الحركة، تعيسة، وأصبحت الثواني ساعات تمتد لتبتلعني داخل ضجرها ووحشيتها، يجب أن أموت، لقد علقت في موقف لا مناص منه إلَّا بموت سريع، انتظرت عودته كسجين يرتدي البذلة الحمراء، انتظرت وانتظرت حتى صباح اليوم الثاني، لكنه لم يأتِ، ويمر منتصف النهار

أيضًا ولم يعُد، طفت الشقة كلها جيئةً وذهابًا، أتصبب قلقًا وحيرةً، وبعد محاولات من التردد قمت بالاتصال به، هاتفه مغلق، وبعد ساعة كان دكتور «جيفري» يطلب مني أن أذهب إليه ومعي الحقيبة التي تركها أمانةً لدى زوجي.

- ولكن لا يمكنني أن آتي إليك بها دون أن أعلم زوجي أولًا.

* لن يأتي زوجك، لن يعود، وإن بقيت الحقيبة لديكِ أكثر من نصف ساعة ستكون حياتك في خطر.

- ماذا حدث؟ أرجوك اشرح لي الأمر.

* ليس لدي وقت للحديث بالهاتف، عندما تأتي سأشرح لك كل شيء، وإذا كان لديك مفتاحٌ آخر للشقة أرجو أن تضعينه بحقيبة ذراعك ربما تحتاجينه، لدي مقابلة هامة، فإذا أتيتِ ولم تجديني يمكنك فتح الشقة وانتظاري حتى أعود.

أخذت الحقيبة وهبطت إلى الشارع دون أن أفكر أو أبصر شيئًا، أشرت لأول تاكسي مرَّ في منعطف الشارع، تهالكت منطويةً داخل كنبته الخلفية، أخرجت من حقيبتي نظارة شمس أخفيت بها عينيَّ، ينتابني الإعياء فجأةً، فأتراجع بجسدي للخلف وأغفو، يوقظني صوت السائق:

– بعد إذنك يا أستاذة، خليكي فايقه عشان العنوان دة مرحتوش قبل كدة.

نمر بجانب النيل ثم يشير فجأة بأنامله خارج التاكسي وهو يقول بتلهف وصوت مرتفعٍ:

- شايفة دة؟

نظرت إلى حيث أشار بفضول، لم أجد شيئًا سوى المياه! يستطرد وهو يتطلع لي في المرآة ببلاهةٍ:

- أهو ده شريان الحياة، أهو ده اللي من غيره نموت.

صمت يتابع بغضب:

- الله لا يسامح السادات هو اللي دمرنا بقانون المباني على الأراضي الزراعية، الأرض اللي كونها النيل في ملايين السنين خلاص قربت تنتهي بسببه لحد ما بقينا نستورد المم بتاعنا بعد ما كانت مصر رقم واحد في الزراعة.

قال ذلك بحنق شديد وكأنه أحد المتعصبين الذين قتلوا السادات، ثم أكمل وقد تراقصت على وجهه السعادة والسرور:

- لكن السيسي ربنا يخليه لمصر ناوي يعمرها.

اللعنة.. إنه سائق ثرثار، تظاهرت بالتثاؤب ورميت جسدي للخلف وأغلقت أجفاني نصف غلقة وانتابني شعورٌ بالتقيؤ بسبب رج السيارة لجسدي، فحدجني بغيظ، نظرة رجل وطني لرجل آخر خائن. أصبت بنوبة صداع نصفي وزادت رغبتي في التقيؤ حيث نسيت أن أبتلع قرصًا من الدواء الذي يعمل كمهدئ لاضطرابات الأمعاء والسيطرة على شعور الرغبة في التقيؤ.

والذي اعتدت عليه قبل أن أستقل أية وسيلة مواصلات، وقف السائق أمام العنوان وترجلت من التاكسي بعد أن حاسبته في عجل، لكن لم أنتبه من أنني مُلاحقةٌ من رجلين يستقلان (موتوسيكلًا) خاصًّا بالمسابقات ويخفون وجوههم تحت أقنعة، سحب أحدهم الحقيبة من يدي ودفعني بها، سقطتُ أرضًا وارتطم رأسي بحافة الشارع ولحين حاولت النهوض كانوا قد اختفوا من المدينة كلها، أصابني هلعٌ كصاعقة، وأصبت بشلل مؤقت، صعدت إلى الشقة وأنا أرتجف وأرتعد، ضغطت بحدة على زر الجرس وقرعت الباب بيدي الأخرى، تذكرت أن دكتور «جيفري» أخبرني بميعاده الهام ويجب أن أنتظره في الشقة لحين عودته، أخرجت المفتاح ووضعته في (كالون) باب الشقة بصعوبة، دخلت بخطوات ثقيلة وأغلقت الباب خلفي، رميت جسدي على إحدى أرائك الصالون، كان كل شيء مُرتبًا في مكانه عدا بعض الأوراق المبعثرة على الأرض بجانب منضدة صغيرة تتوسط الصالون، انحنيت ولممت الأوراق ورتبتها ثم وضعتها فوق المنضدة وبعد أن هدأت خفقات قلبي تمامًا أخرجت هاتفي وقمت بالاتصال بدكتور «جيفري» لاستعجاله، جاء صوت رنين هاتفه من داخل غرفة النوم، أدرت رأسي نحو مصدر الصوت، ثم نهضت من مكاني انتظرت بضع ثوان وأنا آمل في سماع وقع خطواته قادمةً من الغرفة إلى الصالون لكن لم يحدث، عاودت الاتصال مرةً أخرى، دلفت إلى الغرفة بخطوات بطيئة جدًا، جثة مسجاة فوق السرير، غارقة في دمائها، تسمرت لحظات غير مدركة أي شيء، انتابتني رغبة في الغثيان ووجف قلبي وشعرت بهزة

عنيفة تنتزعه من مكانه كل هذا قبل أن أدرك الأمر وأفر هاربةً، تاركةً خلفي بصماتي وباب الشقة مفتوحًا على مصراعيه، هبطت على درجات السلالم وقدمي تتعثر في بعضها البعض وكأنني أعبر مستنقعًا من الزلط والرمال، الدرجات تحت قدمي تهتز وكأنها عاصفة من الزلزال بقياس ١٠ريختر، صاح رجلٌ بعصبية لم أشاهده ولم أشعر بجسده وهو يرتطم بجسدي بعنف، كان يحمل وجبة طعام دليفري.

– حاسبي يا أستاذة هتوقعي الطلب ده تمنه راتبي لمدة أسبوع حرام عليكي.

مضيت متجاهلةً صياحه، وصعد هو إلى الشقة المقيدة بعنوان الطلب، الباب مفتوحٌ على مصراعيه، وعندما لم يجِبه أحدٌ تقدم لبضع خطوات ودار بجسده نحو غرفة النوم لتبصر عيناه جثة دكتور «جيفري» غارقةً في دمائها وعلى الفور أبلغ الشرطة وأدلى بكل ما شاهده. اندفعت إلى الشارع وجثة دكتور «جيفري» لا تبرح مخيلتي، حاولت استعادة هيئتي الرصينة لكن جسدي يرتجف وأصر العزم على عدم الظهور بمظهر طبيعي، حاولت الفرار من مخيلتي إلى وجه طفلة متسولة خالية بشرتها من أية نضارة كما لو كانت تكابد الشقاء منذ مائة عام وأحاطت إحدى عينيها شامة على شكل رمش جميل، اعترضت طريقي، حاولت بجهد الانفلات من إلحاحها الذي كان أسوأ من خلية ذباب في ليلة صيفية، إلَّا أنني يمكنني أن أغفر إلحاح الذباب لأنه خلق بلا ذاكرة، لكني لن أغفر إلحاح تلك الطفلة التي هرولت خلفي للحاق بي محاولةً منها أن تعوق مروري لإجباري على إعطائها القليل من النقود، القليل جدًّا من النقود

سيخلصني من إزعاجها، لكن مبادئي التي عزمت عليها ضد تسول الأطفال وضد كل من يتسولون بالأطفال لن أسمح لها بأن تجهضه، فإن منحتها نقودًا يعني أنني أساعد المجرمين الذين أجبروها على التسول ليجنوا عليها وعلى مستقبل كل الأطفال الآخرين الذين يمتهنون تلك المهنة وسأدفع المجرمين ليزدادوا إجرامًا واستمرارًا، وسأساعد على انتشار تلك الظواهر المسيئة للمجتمع كله، أردت أن أساعدها رغم ما أمر به من أوجاع لا تضاهيها أية أوجاع أخرى، ربت على كتفها بلطف وشعرت وكأن يدي ثقيلة متصلبة وباردة وكأنها انفصلت عن جسدي وعن الحياة، سألت تلك الطفلة إذا كان هناك أحدٌ يدفعها للتسول، لكنها كانت خائفةً وقصت عليَّ القصة المعتادة لدى كل المتسولين التي تحفظها أكثر من اسمها.

– سيبي الجاكت عشان مش هديكي أي فلوس.

قلت ذلك بحزم وبنبرة قوية، فتركت قبضة يدها من الجاكت ورفعت يداها إلى السماء وكأنها تشتكيني إلى الله، شعرت لوهلة بموجات متناقضة من الغضب والأسى واندفعت في طريقي وقدميَّ مرتخيتين من شدة الخوف وكأنني أودع حياة لامرأة مذنبة متمردة؛ لأستقبل حياةً لامرأة بائسة مسكينة، إلى أين الفرار منها؟

إلى «طارق»، لا أعرف أحدًا يمكنه مساعدتي سواه، أخرجت هاتفي من حقيبتي وأنا أحاول السيطرة على أعصابي المتشنجة، عثرت على رقمه بصعوبة بالغة حيث تشوشت رؤيتي، وشيءٌ ضبابيٌ طمس لوحة

المفاتيح فلم أرَ أمامي سوى قوة تدفعني للخلف وتحملني إلى الأمام وتميلني إلى الشمال والجنوب وسواد يحجب رؤيتي كفراشة عمياء داخل شرنقة، جلست فوق رصيف الشارع محاولةً أن أحافظ على توازن جسدي من الانهيار، أخبرت «طارق» بما حدث، أعطاني عنوان حديقة طلب مني أن أنتظره فيها ريثما يصل، مرقت إليها وأنا متيبسةٌ وليست لديَّ أية قدرة على التفكير، تهالكت على مقعد داخل الحديقة، جلست نصف ساعة، كانت أطول نصف ساعة تمر عليَّ حتى أبصرته قادمًا نحوي، فقفزت من مكاني ولوحت له بيدي مستغيثةً به وناديت اسمه بصوت مرتفع، تطلع لي بنظرة واهنة، وتقدم نحوي بخطوات واجفة غير مصدق ما حدث، تأملني مترددًا صامتًا، شعرت برغبته في تركي لولا أن الدموع التي ترقرقت في عيني فأوقفته، التقط يدي على نحو مفاجئ وجذبني نحوه وهو يستدير وتبعته إلى سيارته التي كانت تقف على بعد خطوات من باب الحديقة، اتخذ مقعده أمام عجلة القيادة وشعرت أن كل الوجوه تنظر لي بغضب، وقد كان ظني أن الشرطة تحيط المكان بأكمله، فارتعدت ودسست نفسي بحركة رشيقة في المقعد الخلفي، يبدو أنه يعشق اللون الأبيض استشفيت ذلك من تفاصيل سيارته، لونها، وحتى مقاعدها كفنها بفراش وثير من الوبر ناصع البياض وتدلت بالقرب من رأسه سبحة صغيرة بيضاء، أكره اللون الأبيض، يربكني ويبعثر بداخلي حزنًا هادرًا، لا أعلم حقيقته، لكن يكفي أنه يذكرني بالموت ويوم زفافي!

أسندت رأسي إلى دب لونه أسود، كان الشيء الوحيد داخل السيارة الذي يمتاز بلون مختلف عن الأبيض، اللون المفضل لدي لا يعني لي الحزن كما يعني للآخرين بل يعني لي الحياة ونجوم الليل التي أحب أن أنظر إليها والتي لا تحضر وتزهو سوى في حلكته.

- هتعملي إيه؟

جاء صوته ممزقًا لهواجسي التي لاحقتني فانتشرت لجزئيات تطايرت من نافذة السيارة قبل أن يقوم برفع الزجاج فيعزلني عن الوجوه التي كنت أتخيل أنها تلاحقني والضجيج الذي كنت لا أسمعه من الأساس، وأجبته بصوت خائر:

- أنا مش هعمل حاجة، أنت اللي المفروض تعمل، ولا ايه يا دكتور؟

إجابتي جعلته يغضب ويتذمر ويشعر من خلالها بلهجةِ تهديد حادة، حدجني بنظرة غيظ عبر المرآة المنتصبة أمامي، ثم استطرد قائلًا:

- صورتي الحاجة اللي كانت في الشنطة؟

* أنت كل همك الحاجة اللي في الشنطة، مع أني قولتلك أني مش هصور ومش هفتح حاجة متخصنيش.

لا أعلم إذا كان «طارق» سألني عن هذا الأمر لكي يتأكد من جهلي تمامًا بمتعلقات الحقيبة، أم أنه يتحدث صراحةً، وفى كل الأحوال لن أكشف عن هذا السر لأحد على الأقل في ذلك الوقت.

أردفت قائلة:

– لو معندكش حل ممكن تساعدني بيه، هسلم نفسي، وأنا واثقة أن الشرطة أكيد هتوصل للقاتل.

تنهد منفعلًا ثم قال ببطء:

– مينفعش تسلمي نفسك يا «نبض»، والشرطة مش هتجيبلك براءتك بسهولة، خلينا نستنى أما نشوف تقرير الطب الشرعي والكاميرات والمباحث الجنائية هتوصل لإيه؛ لأن احتمال كبير القاتل مش هيسيب أي أثر وراه، أنتِ عارفة دي مش مجرد جريمة قتل عادية، ولا اللي رتبلها ناس عاديين، وأكيد مش هيسيبوا وراهم أي أثر.

انهمرت الدموع من عيني بغزارة دون سابق إنذار، وانخرطت في بكاء مر، ارتطمت مقدمة السيارة بالمصباح الخلفي لإحدى السيارات التي تتقدمنا، ارتجت السيارة وارتج معها جسدي بعنف، كان «طارق» يحاول أن يجتاز كل شيء لم يعتَد تجاوزه من قبل، إشارات المرور لا يلتزم بها، زحام المارة لا يأبه به، والمحافظة على قواعد وقوانين الطرق، فكانت السيارة تنهب الطريق نهبًا، والتستر على مجرمة بريئة!

– هو إحنا رايحين فين؟

سألت كي أقطع فجوة الصمت التي نسجت خيوطها فوق رؤوسنا، غير أنني لن أعترض على أية إجابة كانت، ولن أعترض حتي وإن كانت إجابته إلى.... إلى الجحيم، فليس لدي أي اختيار آخر.

– هنروح البيت عندي.

ارتطمت إجابته بعقلي الذي كان يغرق في ألف فكرة وفكرة، فأصبت بفزع أفقدني توازني، فصحت بهلعٍ:

- وحسام؟ أنت نسيت أنه ظابط وأكيد هيعرف بالجريمة دي و...

قاطعني بعصبيةٍ:

- أهدي يا «نبض» من فضلك أهدي، «حسام» ظابط عمليات خاصة في الجيش ملهوش علاقة بشغل المباحث والجرايم اللي من النوع ده.

انخرطت في بكاء وشهقت، تأملني «طارق» بضجر، وقال بغضبٍ:

- فيه إيه تاني؟

* الشنطة اللي فيها الإيصالات الخاصة بالشيخ حمزة الهارب اللي كنت بحتفظ بيها لما بديله الفلوس موجودة في الشقة اللي اتقتل فيها دكتور جيفري، وأنت عارف أن الشيخ حمزة الدنيا مقلوبة عليه، ومتصنف من أخطر الإرهابيين، وأنت بتقول إن «حسام» ظابط عمليات خاصة، وأكيد معلومة زي دي هتوصله.

- استغفر الله العظيم.

قالها بحنق شديد، ثم أردف:

- «حسام» الفرقة اللي بينتمي ليها مهماتها خارج البلاد خالص، واسكتي أرجوكي خليني أعرف أفكر، وبعدين أنا اللي بروح البيت يا ستي مش أنتي، يعني لا «حسام» ولا «نور» ولا أي مخلوق هيعرف إني بساعدك، أنا هروح بس عشان أجيب من «نور» مفتاح الشقة القديمة.

صمت هنيهةً وأردف:

- بس المشكلة «نور» لما تسألني عايز المفتاح ليه.

فكر «طارق» في عشرات السيناريوهات حين تسأله «نور» عن طلبه المفاجئ للمفتاح حتى اهتدى لكذبة، وهي أنه بدأ في كتابة كتاب جديد ويحتاج لبعض الكتب الموجودة بمكتبة والده القديمة كمراجع لتساعده وذلك لأن «طارق» لم يعتَد الذهاب إلى الشقة منذ زمن، أمَّا «نور» فكانت من وقت لآخر تأخذ الخادمة وتذهب لتنظيفها وربما لاستعادة ذكريات الطفولة مع والديها. فتح «طارق» الشقة، تبعته بخطوات بطيئة، متعثرة في قلقي، مرتبكة ببؤسي، أجلسني في الصالون، خشب الأثاث مطليٌ باللون الذهبي الذي بهت قليلًا وأصبح مائلًا إلى اللون الأصفر وخطا هو إلى الداخل، عشرة دقائق كانت كفيلةً بأن يرتب فيها غرفة النوم ترتيبًا روتينيًّا.

- أنا رتبتلك أوضة النوم لأنك أكيد محتاجة ترتاحي وتهدي أعصابك، هغيب عنك ساعتين وأرجع عشان نتكلم بهدوء.

تأملته وشعرت حينها بالأمان، وكأن قلبه يحتضنني ويربت عليَّ فدبت الحياة في روحي.

* مكانش فيه لزوم أنك تتعب نفسك كان ممكن أرتبها أنا عادي.

ابتسم ابتسامةً هادئةً وقال مداعبًا:

- لسه وراكي ترتيبات كتير متقلقيش.

خطا نحو باب الشقة متحفزًا للخروج، صحت فجأةً وكأنني تذكرت شيئًا لا يمكن تأجيله.

- طارق؟

استدار بتلهف وخطا نحوي، قلت في شرودٍ:

* تفتكر جوزي هو اللي عمل كده عشان ينتقم مني؟

- الحكاية واضحة، أكيد هو.

صمتت وأنا أتأمله بنظرات مخدرة ثم قلتُ:

* طيب لو جوزي، ليه يسرق الشنطة؟ مش مضطر أنه يعمل حاجة زي كدة!

قاطعني قائلًا بانفعالٍ:

- أنا قولتلك لازم تفتحي الشنطة وتصوري المجلدين اللي فيها.

صمت وكأنه ندم على أنه تسرع وتكلم، وتمنى لو أنه لم يتكلم، فكيف عرف أن الحقيبة كانت تحتوي على مجلدين؟

داعب الشك صدري، الشك هو الفضيلة الوحيدة التي دائمًا تلاحقني، شردت بضع ثوانٍ.

* نبض؟

- ها، بس أعتقد أن اللي عمل كده وقتله، حد كل همه محتويات الشنطة، ولا إيه؟

وجهت له ذلك الاتهام بشكل مباشر دون أن أعي تعجلي، نظر لى بحنق شديد وفتح فمه ليحتج لكنه بدلًا من أن يثور بوجهي، حملق في متأملًا والتزم الصمت، تضخم الغضب في أوصاله فضرب زجاج المائدة بقبضة يديه بقوة، فتهشم الزجاج لأجزاء وسقط ذراعه في فراغ كسر الزجاج فأصيبت يده بجرحين أحدهما غائر، وقد حدث في أعلى مرفقه، والثاني سطحي، وقد حدث بكف يده، قاوم الألم الذي كان يعتصره ولم يبالِ بقطرات الدماء التي تساقطت كقطرات مطر، ارتعدت وارتعش جسدي، ومضى نحو الباب دون أن يضيف كلمةً. صحت متوسلةً إليه أن يستمع لي وأن يقبل اعتذاري، تابع خطاه ولم يلتفت لي، فقلت بعصبيةٍ:

- لو مش عايز تساعدني وشايفني حمل عليك قول وأنا همشي فورًا، لكن متعاملنيش بالطريقة دي.

استدار نحوي وحملق بي، واسترسل يقول في عصبيةٍ:

- ما لها طريقتي؟ مش عجباكي؟ على الأقل أفضل من الطريقة اللي كان بيعاملك بيها جوزك.

قال ذلك واندفع إلى الخارج وصفق الباب خلفه بقوة، فاهتزت الشقة وانتفض معها جسدي، صدمني رده وأشعرني أنني امرأةٌ بلا أية قيمة، امرأة عليها أن تقبل بأي شيء رديء حتى وإن كان مهينًا لأنها قبلت من قبل ما هو أردأ، امرأة عليها أن تقبل بالقليل، بالسيء والحسن، الخطأ والصواب، ولا يحق لها أن تعترض على شيء ما دامت لم تعترض من

قبل. وقفت أتطلع حولي بروح مليئة بالجثث، وكفن يكبل كل حواسي، شعرت بأعين تلاحقني رغم الصمت الغاشي على كل تفاصيل الشقة، استدرت نحو النافذة، وقفت خلفها لألتقط أنفاسي التي تحجرت بمنتصف حنجرتي وكادت أن تقتلني اختناقًا، وقف العالم كله يحملق بي ويشير نحوي، هذا ما تهيأ لي، ففزعت وارتعدت وأغلقت كل النوافذ واستدلت الستار كله وخطوت إلى غرفة النوم، استلقيت على السرير وغرقت في الفكر، هل حل شفرات اللوحات التي كانت مرسومة بالمجلدين ستجعلني أصل إلى براءتي أم أنها ستجعلني أصل لقمة تعاستي ويأسي. فتحت التلفاز محاولةً طرد أحداث اليوم، قناة أجنبية تبث فيلمًا قديمًا لـ ريتشارد بيرتون. في اليوم الثالث من خلق العالم، جلس الله يراقب خلقه وقد تجسدت الخطيئة والجنة، الجحيم والبشر، الأعماق التي تتفجر منها مدينة مظلمة مضاءة بالحرائق التي تندلع دون توقف، وحوش كابوسية، مخلوقات من الهاوية، طيور عملاقة وستة غربان، سكين بارز لخرق البشر وخداعهم وإغرائهم، رموز محشورة لا نهاية لها، والعديد من الشفرات المأخوذة من الخطايا السبع المميتة، (الإفراط في العاطفة يؤدى إلى الزوال، الانحرافات التي تخلقها حواسنا محاولة لبناء نوع من الجنة المصطنعة هي كذبة أوجدتها مشاعرنا فقط، الجشع- الحقد- الشراهة- الغضب- الكسل- الغرور)، وقف ريتشارد بيرتون وهو ينزع خوذته وخلفه علقت تلك اللوحة (حديقة المسيرات الأرضية)، طُرق الباب طرقةً ضعيفةً غضضت بصري عن تفاصيل تلك اللوحة ومددته إلى خارج باب الغرفة،

أخفضت صوت التلفاز، تكرر طرق الباب، قفزت وجررت قلبي الذي سقط في قدميَّ، ولم أستعيد قدرتي على التنفس حتى اتضح لي أن الطارق هو «طارق».

- نسيت أن آخد منك الخط والتليفون لازم تتخلصي منهم لأن المباحث ممكن تجيبك عن طريقهم بكل سهولة، استأنف قائلًا وهو يضغط على جرح يده الذي كان ما زال ينزف.

- لازم نتخلص منهم بسرعة.

* أنت ليه مروحتش المستشفى تخيط جرح إيدك.

- ده جرح عادي مش مستاهل مستشفى.

* يعني هتسيبه ينزف كدة على الأقل تروح الصيدلية يضمدوه ويعملوا اللازم.

- متقلقيش.

جلس على الأريكة ثم طلب مني أن أحضر إليه من صيدلية المطبخ شاش طبي وضمادات، أحضرتهما في عجلٍ

- أنا آسف لو كلامي ضايقك.

ثم أضاف بعد أن نزع ذراعه من كم قميصه:

- ممكن تساعديني في لف الشاش.

اختلجت وارتعشت يدي وهي تلمس يده، وحاولت تجنب أن تلتقي عيني بعينيه،

تأملني بصمت وقال بشيء من الشرود:

- خايف أعترفلك بمشاعري تجاهك دلوقتي، تفتكري أني بحاول أستغلك مقابل أني قررت أساعدك.

* بس أنا واثقة أنك مش كدة، إيه هو شعورك.

- إني أحضنك.

هو نفس الشعور الذي دوى صوته داخل أعماقي، زحف كثعبان وحيد وتائه داخل صدري، رباه كيف يمكنني أن أقتله!

لامست أطراف أنامله خصلةً كانت قد تدلت فوق جبيني، شعرت وكأن موجة من الكهرباء صعقتني، فقفزت ناهضةً مبتعدةً، وأدرت جسدي للجهة الأخرى، خائفةً لأن أسقط فيما لا يشرعه ضميري، لن أكون امرأة خائنة حتى وإن كان كل شيء يدعو لذلك حتى وإن خانني زوجي لن أبادله الخيانة بالمثل، أكره الخيانة وأمقتها شر المقتِ، أكرهها ككره هتلر لليهود، حتى ولو كانت روحي هي تناسخ لروح «بسمة» وليست «نبض».

- طبيعي يا دكتور الشعور ده؛ لأني شبه مراتك، ولو أنك مكلمتنيش عنها ولو مرة.

قلت ذلك محاولة لجره في الحديث عن زوجته «بسمة»، أجابني وهو ينهض قائلًا:

- صدقيني مش عشان الشبه.

* آمال عشان ايه؟

استدار فجأةً وكنت قد أدرت جسدي نحوه فلاحظت أسفل كتفه من الخلف وشمًا صغيرًا للقانون الفيزيائي، وأسفله تلك الرسمة الغريبة والتي كانت رسمت في كل صفحة من صفحات المجلدين حينها فقدت قدرتِي على الكلام وركزت فيه نظرة فارغة، واستبد بي خوفٌ جعل كل شيء أمامي يغيم ويتمزق، لماذا كل شيء يضئ في الحياة وننظر له بانبهار يغدو وهمًا زائفًا؟ لماذا يا الله؟

في مساء اليوم تناول «طارق» و«نور» العشاء، عادة مقدسة لدى «نور» تلزم بها كل أفراد أسرتها وأصدقائها حين يتواجدون في الفيلا، جلست «نور» وطارق حول طاولة الطعام لتناول وجبة العشاء وقبل أن ينتهيان من عشائهما تناهى إليهما صوت أقدام «حسام» تخطو فوق سجادة زرقاء امتلأت بها حجرة المعيشة وانبعث إليهما صوت الخادمة وهي تتبعه قائلةً:

- حمد لله على السلامة يا «حسام» بيه.

* الله يسلمك يا «أم حليمة» .

كانت في نبرة صوته غلالة من الشرود والقلق غير معتاد بها، ثم طلب منها أن تعد له كوبًا من القهوة. اندفعت الخادمة إلى المطبخ كي تعد له القهوة وهي تدعو له.

- ربنا يحميك ويحرسك ويحافظ عليك ويكتر من أمثالك يا بني.

ومن صدق مشاعرها وهي تدعو كانت وكأن الدموع ترقرقت في مقلتيها فلم يكن «حسام» ضابطًا من أولئك الذين ينتسبون لتلك الهيئة بغرض

التفاخر والكبر لتسيل الخسة الممزوجة بالسلطة في دمائهم، أو من أولئك الفئة المستغلين لسلطاتهم في ترميم رواتبهم نظرًا للمعيشة الأرستقراطية التي يتطلعون إليها، أو تلك الفئة التي كل ما يشغلها أن ترتدي الزي الرسمي للتباهي به أمام قبائلهم وأعرافهم وعائلاتهم فينمون ويتعملقون في خيالاتهم وحدهم مثلهم مثل طلاب مراهقي الشرطة المدرسية، ولا شك أن كل تلك الصفات السيئة المسيئة المتوارثة سنجدها في كل المجالات الأخرى أيضًا، فالناس ذوو نفوس وطوائف متعددة ومختلفة، منها السوي ومنها غير السوي، ومن كليهما خليط آخر. أمَّا «حسام» فقد كان محبوبًا ومن أسمى أنواع السعادة التي كانت تهز أعماقه إيمانه بأنه محبوبٌ لذويه ولكل عمل إنساني يقدمه بإخلاص يشع وسط الظلمة، فكان يمنح جسده جسرًا لكل عابر سالم أو مظلوم، وجلاد لكل من فقد إنسانيته واستوحش واستفحل وسعى فسادًا؛ لذلك كانت تلاحقه الدعوات وتنهال عليه من كل مكان، دلف إلى غرفة الطعام بخطوات نشيطة وهو يتطلع إلى لقاء «نور» وطارق بفارغ الصبر وعلى وجهه ارتسمت علامات الجدية لأمر يتعلق بشيء في غاية الأهمية. تطلعت له «نور» بابتسامة مسرورة بلقائه وسألته بتلهف قائلةً:

– حسام، يعنى مقولتش إنك جاي يا حبيبي. حمد لله على سلامتك.

سحب مقعده وأثناء ما كان يجلس أبلغهما أنه قادمٌ لأمر هام على ألَّا يتجاوز مكوثه معهم النصف ساعة. كان «طارق» مطمئنًا، إلَّا أن نوبة من القلق والارتباك بدأت تهدهد صدره، وكان اطمئنانه ناتجًا عن ثقة

مطلقة أن عمل «حسام» ومهامه تختلف تمامًا عن أن يصل إليه ذلك الأمر، لكن ما حدث غير ذلك، وكان للقدر ترتيبات أخرى فبفحص جثة دكتور «جيفري» من قبل المباحث الجنائية وجدت بجسده نفس الختم والقانون الفيزيائي موشومان على جسده، مما صعد الأمر وربطت الداخلية الأمر بالمتاهة وما حدث قبل أيام، ولذلك تم استدعاء «حسام» من قبل وزير الداخلية مرةً أخرى حيث أن وجود تلك الجثة هي أول خيط واضح للغز المتاهة، وما حدث سابقًا، لبث «طارق» منتظرًا لأن يفصح «حسام» عن سبب قدومه بشكل مفاجئ بتلهف كبير، فسأله:

- خير يا «حسام»، شكلك قلقان من حاجة مالك؟

* خير يا طارق، متقلقش يا حبيبي، أنا كنت بس فايت من مكان قريب قلت افوت اتطمن عليكم.

ابتسم «طارق» مطمئنًا وأضاف قائلًا:

- طاب الحمد لله ربنا ميحرمناش منك يا غالي.

صمت «حسام» برهةً ثم وجه كلامه لـ«نور» قائلًا:

- صحيح يا «نور» فاكرة «نبض» مرات «دورغام»، هو مفيش اتصال بينك وبينها في الفترة دي.

تساءلت «نور» بدهشة.

* يااااه.. نبض! ايه اللي فكرك بيها؟

وجف حينها قلب «طارق» وأدرك أن سؤال «حسام» عن «نبض» يحمل بين طياته قتل دكتور «جيفري» بكل وضوح، فقال بقلق حاول أن يخفيه ويظهر بهيئة رصينة:

- فيه حاجة يا «حسام» ولا إيه؟ ما لها نبض؟

* لأ أبدًا مفيش.

لم يكن مسموحًا لحسام أن يتحدث عن مهامه وعمله أو أن يحكي أية تفاصيل تختص به سواء كانت لأسرته أو سواها، بل كانت تدار كل الأمور في سرية تامة، ولم يكن حتى يصرح له بأن يدلو بلون السجادة أو الستائر داخل الهيئة التي يعمل بها، ألحت «نور» وطارق على «حسام» عن السبب الذي جعله يسأل عن نبض، لكنه كان قد استنفد كل طاقته والحفاظ على هدوئه فصاح بوجوههم قائلًا بعصبيةٍ:

- جرى إيه يا جماعة؟ مبعرفش أسأل سؤال وتجاوبوني إلَّا لما تفتحوا تحقيق معايا! عايزين تفيدوني وتجاوبوني على قد سؤالي ماشي، مش عايزين خلاص.

سألته «نور» بنبرة هادئة:

- مالك يا حبيبي متعصب ليه كده؟ وبعدين إحنا مقصدناش أن نحقق معاك ده مجرد فضول، وبعدين ولا تزعل نفسك، «نبض» من يوم الفرح منعرفش عنها أي حاجة، أنت عارف المشكلة اللي حصلت بينها وبين جوزها، وبعد كدة منعها أنها تتواصل معايا واللي بعرفه أنه أخد منها

التليفون وكل اتصالاتها بتم بمراقبته ليها، حتى حاولت كتير أعرف ليها أي رقم فون تاني عشان أطمن عليها، بس للأسف معرفتش.

دلفت الخادمة إلى غرفة المائدة بعد أن أعدت كوب القهوة وقدمته لـ«حسام»، ثم عادت إلى المطبخ، التقطت علبة دواء من أحد الرفوف، تناولت قرصين وارتشفتهما على تمهل، ثم غرقت في غسيل الأطباق.

في اليوم التالي ترجل «أدهم السلحدار» من سيارته سبورتباك A p r ، تلك السيارة التي لا نشاهدها سوى في أفلام الجاسوسية أو زيارة سياسية لأحد رؤساء الدول تبث عبر شاشات التلفاز، مرتديًا الواقي الرصاصي تاركًا سيارته القادرة على صد ومنع مختلف أنواع الرصاص، صاعدًا إلى مقر مكتب شركته الفخمة في المصعد الكهربائي محاطًا فيه باثنين من البودي جارد الخاص، جلس في مكتبه قلقًا وتنهد بفروغ صبر حتى وصلته رسالة مشفرة عبر (الواتس آب)، نظر إليه وابتسم، ابتسامةً لامعةً وهز رأسه باطمئنان ثم قام بالاتصال مباشرةً وتحدث عبر الهاتف مع رجل مجهول قال له بصوت حاد:

- تمام، اخفي الأمانة في المكان اللي قولتلك عليه واتخلص منهم، مش عايز أي أثر لجثثهم ولا أي حاجة تخص تنفيذ العملية يكون ليها وجود على الأرض كلها. وفي مساء اليوم قام بالاتصال على أحد البرامج التليفزيونية وأبلغ عبره أنه يستغيث بالشرطة في القبض على عاملين لديه بأقصى سرعة، ووجه إليهم تهمة سرقة إيرادات اليوم، حيث كانت كل مهامهم استلام الإيرادات المالية من كل فروع المطاعم والأوتيلات

التي يمتلكها والتي توجد بالمدينة والمدينة المجاورة، وإيداعها في رقم حسابه البنكي.

أمَّا «غسان» و«بلال» قد علا صوتهما وصاح «بلال» بعد أن أصابه الرعب قائلًا:

- أنت عارف لو أمجد بيه عرف أنك أنت اللي وراء المصيبة دي، وأنك تصرفت التصرف دة من غير ما ترجعله هيعمل ايه فيك؟

قال الرجل بتبجح وهو يحدجه بتعالي:

* هيعمل ايه يعني؟ أمجد ده يخوفك أنت ميخوفنيش أنا يا «بلال» ولو نسي أصله وتاريخه أعرفهولوله.

حدجه بنظرة محتدمة وقال في حيرةٍ:

أنت شكلك مش مدرك المصيبة اللي عملتها دي، ويا ترى خبيت فين المصيبة الأخرى؟ ولا دي كمان ناوي متعرفوش أنها خلاص بقيت في إيدك؟

* وحياتك ولا الدبان الأزرق هيعرفلها طريق، وهو أنا عبيط، ويخبط راسه خلاص في أقرب حيط.

- أعقل يا غسان أنت مش قد الحاجة دي، متفتحش على نفسك أبواب من الجحيم.

وبعد خمسة أيام كشفت تقارير الطب الشرعي والمباحث الجنائية عن أشياء هامة، وخيوط دقيقة لحل لغز قتل دكتور «جيفري» الذي أصبح كل شاغل للداخلية، كما أكد المحققون أن المجرم الذي قام بقتل

دكتور «جيفري» في الأرجح قتله بدافع الانتقام، وكان «حسام» ينتظر خروج النتائج النهائية بفارغ الصبر، وقرأ حينها تقرير شركة الاتصالات بشغف وتوقف عند رقم هاتف، أمعن النظر إليه بشرود وتزاحمت الأفكار في ذهنه وكأنه تذكر شيئًا هامًا قشعر له بدنه. خرج متجهًا إلى الفيلا التي يمكث فيها «طارق» و«نور»، وكان قد تحول لرجل آخر وانتابته نوبةٌ من الغضب الجامح وتوهج الغضب في عينيه كلهب النار وصاح في وجه «نور» بشكل مخيفٍ:

* «طارق» فين يا «نور»؟

نظرت إليه «نور» بذعر شديد.

- في إيه يا حسام؟

تجاهل سؤالها وهمَّ إلى كل أرجاء الفيلا يفتش عن «طارق» وصعد إلى غرفته وهو ينادي اسمه بذعر:

* طارق ... طارق ... طارق.

فلم يجده، واندفع خارجًا وخرجت «نور» التي كانت تبعته.

- فيه لإيه يا «حسام» فهمني، فيه أيه؟

استدار نحوها وكأن لسانه عجز عن الكلام، فلما نظرت إلى معالم وجهه الصاعقة ارتعدت وضاق صدرها وقالت في صوت مرتعشٍ:

- مش عارفه يا حسام... «طارق» الأيام دي بيرجع متأخر أوي. آه.. هو قبل كام يوم كده أخد مني مفتاح الشقة بتاعتنا القديمة عشان بيكتب في كتاب جديد ممكن تلاقيه هناك.

* الشقة القديمة؟ معاكي نسخة تانية للمفتاح

قال ذلك بحدة وصرامة.

- أيوة فيه نسخة تاني، لحظة اجبهالك.

خطت «نور» إلى غرفتها وانتظر «حسام» ريثما تعود بالمفتاح وقد خنق فمه وذقنه بيديه وكادت أظافره أن تخترق أسفل ثغره من فرط التوتر والقلق، نهش المفتاح من «نور» نهشًا واندفع إلى الخارج.

****

تملكني الخوف من صوته، كنت أرتعش وأحاول أن أميت أي قلق، رغم أنه كان يتحدث بهدوء وبصوت منخفض حنون، إلَّا أنني لا يمكنني أن أثق به.

- أنا عمرى ما هتخلى عنك ولو هقدملك حياتي كلها بس المهم إني أشوفك سعيدة.

قال ذلك واتجه بنظره إلى النافذة وغرق في فكره، كان الغسق يضرج الأفق بنوره الأرجواني والريح راكدةٌ دافئةٌ، قلبي يكاد يعصيني ويزحف غارقًا نحو أشرعته.

* «نبض» أنا بحبك فعلًا ... بقيت بفكر فيكي أربعة وعشرين ساعة، بحاول أعمل أي حاجة عشان أطلعك من الورطة دي، مش عارف أنام، ومش عارف أنت ليه دايمًا بتحسسيني أنك خايفة مني.

- تفتكر إن أنا دلوقتي في وقت يسمحلي مثلًا إن أبادلك....

باب الشقة يفتح على نحو مفاجئ ويُغْلَق بسرعة، تتجه أعيننا نحوه بشكل مغناطيسي، يقف أمامنا «حسام» وتتسع أعيننا ويعجز كلانا عن الحركة، ينظر إلينا «حسام» ببغض واحتقار، ثم يهتف قائلًا:

- متوقعتش أن الأمر يوصل لكدة.

يصمت وكأنه يستعيد إلى مخيلته أمرًا ما، ثم يقول مصدومًا:

- إيه يا «طارق» شقة الوالد والوالدة خلتها للتستر على المجرمين، عامة عملت خير، أهو بدل ما كنت تتعبنا عشان نلاقيها.

يقاطعه «نبض» قائلًا وهو ينظر لي:

* اخرجي يا «نبض» أنت دلوقتي.

يضحك «حسام» بسخرية ويقول بتعجبٍ:

- تخرج؟

يشتد الشجار بين «حسام» وطارق، «حسام» يخرج سلاحه ويصوبه نحوي ويطلب مني أن أذهب معه، وطارق يشتبك معه في شجار ويصيح مرةً أخرى وهو يحاول أن يبعد «حسام» عن طريقي.

* اخرجي بقولك، اخرجي.

أهرع إلى الخارج ويبقى «حسام» وطارق فى أشتباك مروع كما لو كانا عدوين، يجذب «حسام» «طارق» من قميصه، فيتمزق ويظهر الوشم أمام أعين «حسام» واضحًا، كان «حسام» قادرًا منذ البداية على أن يفتك به من الوهلة الأولى إلَّا أن كان هناك شيئًا بداخله يمنعه من أن يشتبك معه بوحشية، بل كان حنونًا، الآن يقف مذهولًا وينتابه الفزع غير مصدق لما يرى، «طارق» يستدير نحوه ويصيح في انهيار.

اقتلني يا «حسام»، اقتلني وريحني وينخرط في بكاء محرقٍ.

يتهاوى «حسام» على الأريكة وهو خائر القوى حيث قدماه لا تحملانه، غير مصدق ما شاهده، أسند رأسه بيده وكأن رأسه كادت أن تهوي من شدة التعب.

وبعد ثلاثة أيام من صراع نفسى خاصم فيه النوم وشعور بخجل لاحقه كظله وهواجس جعلته يظن أن شقيقه متورط في كل تلك القضايا التي وهب حياته للنيل منها وافنى سنوات عمره الماضية في محاربتها دون أن يكترث لأى شئ آخر قرر أن يقدم استقالته من العمل الذى خدم فيه بشرف وأمانة وشعر أنه لن يستحق الإستمرار فيه لا أعلم كيف تورط «طارق» في هذا الأمر، لكن قبل عشرة سنوات عندما علم بزيارة الكاتب الألماني الشهير «رافاييل ستيفن» إلى مصر رتب لمقابلته بكل شغف، وكان الكاتب معروف عنه شدة الاهتمام بالعلوم الأثرية وخاصة الفرعونية المصرية كما كانت أغلب أعماله تتحدث عن علوم ما وراء الطبيعة، ويتجلى إيمانه بالسحر واضحًا وقد ذيع عنه أنه يعمل لصالح طائفة دموية لم تكشف عن اسمها لأن الإستراتيجية التابعة لها لم تكن شفافة بل كانت غامضة وتدار بشكل سري، وكان مقر الطائفة في برلين بألمانيا وكان من حين لآخر يسافر أفرادٌ منها إلى مصر للقيام بأعمال شيطانية وممارسة السحر والحصول على الكنوز الفرعونية وتهريبها، وكان «طارق» من المهتمين بالظواهر الغامضة وبدأ تدريجيًّا الغوص في تلك الأفكار وبمقابلته لهذا الكاتب المشهور بدأ يغوص أكثر في تلك الأشياء كفضول وشغف، ثم تطورت المقابلة إلى صداقة ثم تجنيد واستتب به الأمر بتورطه معهم، ورغم أن «طارق» عندما علم بالجانب الدموي والطقوس المستوحشة التي تقوم بها تلك الطائفة لاستخراج الكنوز وبعض الأعمال الشيطانية الأخرى، أراد تركها على الفور والفر من تلابيبها لكنه فوجئ بأنه ليست لديه حرية هذا الاختيار، ولن تسمح

الطائفة لعضو منها تركها بعد أن علم أدق التفاصيل عنها، فإما أن يكون عبدًا لها، وإما الموت.

وقد بدأت تلك الطائفة نشاطها في مصر قبل أحد عشر عامًا عندما جاء أفرادٌ من الطائفة ليمارسوا العمل الأول من الطقوس الشيطانية الدموية بغرض الحصول على مقبرة فرعونية وكان «نادر» على علم بهذا الأمر، وكانت مهمته أن يأتي إليهم بالضحية التي سيقدمونها قربانًا للجن كما في اعتقادهم وما يؤمنون به، وكان في ذلك الوقت يفكر كيف يحصل على طفلة بالمواصفات التي طلبت منه.

وقف «نادر» في ذلك الوقت يفكر كثيرًا، كيف سيجد تلك الطفلة؟ ولم يكن «أمجد» في ذلك الوقت ارتقى إلى منصبه هذا، وكان ينوي حضور ذلك الطقس، وفي ذلك اليوم المفترض أن يتم فيه تنفيذ الخطة عاد إلى البيت وكان يمكث فيه مع شقيقه «نادر عبد الغفار السلحدار» بمفردهما، لقد كابدا الحياة منذ طفولتهما وما شاهداه من شقاء وحرمان في طفولتهما جعلهما يرغبان في الثراء بشدة وفي أسرع وقت وبأي مقابل رغم تفوقهما الدراسي وذكائهما الجياش، جلس حينها في الصالون يفكر بقلق فيما سيشهده اليوم من إراقة للدماء، وقد انتابه وخزٌ صادرٌ من بقايا ضميره، إلَّا أن الثراء الفاحش الذي يتوق إليه تجسد أمامه في صورة شيطان على هيئة ملاك أقنعه أنها العملية الأولي والأخيرة وسيتوب توبةً نصوحةً بعدها، وأنها ستتم سواء كان بوجوده أو دونه لا محال، لذلك أعطى تصريحًا لنفسه بالبراءة ليخدر ضميره

ولا يستيقظ بعدها أبدًا، وقد قطع أفكاره صوت طفلة خرجت من الحمام كانت تجري نحوه وارتمت في حضنه قائلةً بصوت حنون ناعمٍ:

- أونكل «أمجد»، وحشتني، أنت ليه بطلت تزورنا؟

نظر إليها «أمجد» بهلع وسألها بارتباك وذهولٍ.

* أنتِ مين اللي جابك هنا؟

- عمو «نادر» قالي إن ماما هتيجي تاخدني من هنا بعد ما تخلص تصوير، ممكن تتصل لي بيها عشان هي وحشتني أوي.

نظر إليها «أمجد» نظرةً فارغة بعقل شبه مخدر، ثم قام بالاتصال على «نادر» وسأله باندهاشٍ:

- بنت «ليال» بتعمل إيه هنا يا «نادر»؟

أخبره «نادر» أنه لم يجد طفلةً بنفس المواصفات التي طلبتها تلك الطائفة غيرها. جن جنون «أمجد» واصفر وجهه واختلجت ملامحه فهو لا يكاد يصدق أذنيه حتى أنه ظن جنونه، وبحنق شديد طلب منه أن يحضر فورًا، وعندما عاد «نادر» استقبله بغضب شديد لما فعله، وجحظت عيناه وتوعد له بالقتل إن لم يرجع الطفلة لوالدتها، وصاح «نادر» في وجهه وهو في أشد حالات البؤس واليأس.

- متخليش عواطفك تنزلك سابع أرض، «ليال» عمرها ما حبتك ولا هتحبك في يوم من الأيام طول ما أنت فقير.

لقد أحب «أمجد» «ليال» بكل جوارحه حتى فني في حبها فكان حبها الملتهب في قلبه خالدًا لا تساويه أية غريزة أخرى لديه، وأردف «نادر» في هدوء وهو ممعن النظر في وجه «أمجد» قائلًا:

- وبعدين «ليال» بلغت البوليس أن بنتها اختفت وكلمتني تسأل عنها قولتلها أن معنديش أي معلومة عنها، والبنت لو رجعت هتحكي كل حاجة وهنروح في داهية.

قاطعه «أمجد» بصوت تلتهب من صداه نار محرقة:

* قسمًا بالله لو لمست شعرة وحده منها يا هكون مسلمك لحبل المشنقة بأيديا.

وحين خمدت حدة الشجار بينهما وأدركا أن تلك الطفلة لا يمكنها أن تعود إلى والدتها في كل الحالات فكر «نادر» في خطة شيطانية واتفق مع «أمجد» على أن يتم تهريبها إلى ألمانيا وسيعطيها لأسرة تعتني بها حتى لا يفتضح أمرهما، فما كان لـ«أمجد» أي اختيار آخر، وفي الحقيقة أن «نادر» قد أهداها إلى «فرانك» لتكون ضمن تجارته الصفيقة الوضيعة.

****

امرأة واحدة فقط هي القادرة على مساعدتي «ليالي فتحي» لقد قدمت لها منذ أربعة أيام بستانًا من الفرح وقطعة من الفردوس، لقد أعدت الحياة في أوصالها، أهرع إليها مرتعبة ودقات قلبي تدوي في أذني، فتربت على قلبي وتمنحني طمأنينة وسكينة وتعدني أنها لن تتخلى عنى.

وفى اليوم التالي يمتد صوت رنين الهاتف إلى مسامعي...،

عزيزي القارئ الآن يمكنك أن تعود معي لتتذكر ذلك اليوم الذي بدأت به الرواية، يوم الحفل الذى أقامته «ليال» للاحتفال بمناسبة اختيارها سفيرة لتمثل السفارة المصرية في ألمانيا وعندما طلبت منها أن تدعو كل تلك الشخصيات التي حضرت الحفل.

أفسد النقيب «حسام» خطتي التي كانت ستكشف لي عن القاتل عندما حضر إلى الحفل بشكل غير متوقع ولم يترك الحفل حتى انتهائه مما جعلني أقوم بإلغاء الخطة.

في اليوم التالي يستيقظ «نادر» مع بقايا آثار للصداع بعدما احتالت عليه تلك الحسناء بشراهة وزرعت بهاتفه برامج تجسس، لقد نجحت المخابرات المصرية في أن تصل إلى ما أرادت الوصول إليه بعدما تقدمت «ليال» ببلاغ بشكل سري إلى المخابرات المصرية، وقد كانت مهمة المخابرات المصرية لأجل معرفة عنوان الأكاديمية التي توجد فيها أبنة «ليال».

فهي كانت بمثابة دار رعاية متكامل، وكانت تحتوي على أسرار خطيرة، ولم يسمح «فرانك» لأي شخص بزيارتها، أو أن يكشف عن مكانها،

وما هو الغرض من تأسيسها إلَّا لمن يثق فيهم ثقة عمياء، وفقط كان «نادر» له الحظ الأكبر والأوفر في زيارتها، حيث كان يشارك «فرانك» في أغلب صفقاته غير المشروعة، والتي تمتاز بالخسة والدناءة والصفاقة، وكان «فرانك» يثق فيه بقدر كبير رغم أنه لا يثق حتى في نفسه، ولم يكن «نادر» يزور الأكاديمية إلَّا لغرض وسر دفين يخص تلك الفتاة التي تجبره على زيارتها من حين لآخر، والأدق أن «أمجد» هو من يجبره على زيارتها والاطمئنان على أحوالها رغم أنهما يعلمان أن أحوالها لن تكون بخير أبدًا في ذلك المكان المظلم المدنس بكل الخطايا بلا رحمة أو شفقة، فقد كان هذا المكان يضم أكثر من مئة وعشرين فتاة تتراوح أعمارهن ما بين الخمسة سنوات وحتى السادسة عشر عامًا، وجميعهن تم خطفهن عندما كانت أعمارهن أقل من الخمسة سنوات وتصديرهن إلى ألمانيا من قِبَل المجرمين والمفسدين ومن يرتكبون أكبر الفظائع والآثام بغرض التجارة بأجسادهن واستخدامهن في أعمال وضيعة لا تخطر على بال بشر، فكانت الأكاديمية تعمل على تدريبهن وتعليمهن وهن أطفال لتدرب عقولهن كيف تصبحن مواطنات صالحات خاضعات ليتخرجن من تلك الأكاديمية وهم مجرد مسوخ لا طلبات لهن ولا شجار أو آراء مختلفة تنفرج في عقولهن وتسبب أية خسارة أو مشكلة لتلك التجارة الصفيقة، وكانت الأكاديمية تشرف عليها امرأة في العقد الرابع من عمرها، ولم تكن هيئتها تشي بغير الوقار والجمال، لكن ها هو حال البشر دائمًا يمكن للشياطين منهم أن تتمثل في هيئة ملائكة وقديسين وأنبياء. وفي يوم الأحد الماضي اجتمعت بفتيات

الطابق الرابع، حيث تنقسم الأكاديمية لأربعة طوابق، تم ترتيبها من حيث أعمار الفتيات اللاتي تتلقين الدروس وتمكثن فيها منذ نعومة أظافرهن، ففي الدور الأول تمكث الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن ما بين الخمسة سنوات وحتى الثامنة، ويتبعن نظامًا أكثر دقة في ترويضهن وتدريبهن لتصبحن آلات متحركة تخدم بشرف وإيمان، ويُبذل كل الجهد في جعلهن ينسون تمامًا لغتهم ويتحدثون الألمانية ويطمسون من ذاكرتهن أي شيء من الماضي، فيعاملوهن وكأنهن ولدن توًّا، وقد بدأت تلك السيدة الاجتماع مع الفتيات اللاتي تمكثن في الطابق الرابع، وهو طابقٌ متكامل يتوافر فيه كل شيء للمعيشة والدراسة، وتمكث فيه الفئات العمرية من الثالثة عشر وحتى السادسة عشر. وقفت متضرعة على منصة القاعة وكانت الفتيات تجلسن أمامها على مقاعد تستمعن إلى درسها والإنصات إليها باهتمام –كما تعلمن سالفًا- وقالت حينها بصوت هادئ حنون:

- أيتها الفتيات الجميلات، رجاءً استمعوا لي جيدًا.

لقد منحتكن الدار هنا حياة كريمة، احتملتكن وقدمت لكُنَّ كل ما في وسعها في الوقت الذي استغنت فيه عنكن أسركن، وتخلوا عنكن دون رحمة، فكانت هي اليد الرحيمة التي امتدت إليكن، فكيف نرد إلى تلك اليد الرحيمة بعضًا من العطاء الذي منحته إليكن؟

قالت ذلك وركزت نظرها على فتاة وطلبت منها أن تنهض وتجيب بنفسها قائلةً بصوت خفيضٍ:

- ستجيبنا إيلدا، هيا يا فتاتي أخبري إخوتك كيف.

نهضت الفتاة بنشاط وقالت بصوت عذب وبمشاعر وطنية بارقة:

* أن نقدم كل ما في وسعنا وما نملك من جسد وجهد وكل شيء يمكننا أن نمنحه إليها بكامل رضانا، وألَّا نحتقر أنفسنا لأننا نخدم الوطن بشرف وأمانة.

جيد، سارة.. هيا أخبرينا كيف نخدم وطننا؟ وما هو الوطن أولًا

* الوطن هو ذلك المكان الذي انتشلنا من التشرد ووفر لنا حياةً كريمة، حياةً لم توفرها لنا أسرنا الذين تخلوا عنا؛ لذلك علينا أن نخدمه بإخلاص ومحبة ورضا، ونقدم له أجسادنا وكل شيء يمكننا أن نقدمه له.

- جيد ... جيد ... جيد ... إلين؟

* أوافق رأي سارة وإيلدا.

- حسنًا ... مارليز؟

وقفت تلك الفتاة التي يشع وجهها بملامح عربية مميزة رغم عينيها الخضراوين وتدلي شعرها الأسود المموج حتى خصرها، وستة نقاط بنية اعتلى بعضها منتصف أنفها وانتشر بعضٌ منها فوق خديها ليكونوا خليةً من النمش، وكانت تلك الفتاة تسبب القلق كثيرًا لتلك السيدة بسبب كثرة أسئلتها وذكائها واعتراضها دائمًا، رغم كل الجهد الذي بذلته الأكاديمية لغسل عقلها وترويضه بشكل غير قابل للكسر. فانتصبت واقفةً وقالت بنبرة حادةٍ:

* لا أوافق رأي إيرين أو إيلدا، لن أبذل شيئًا فوق طاقتي من أجل وطن كل ما قدمه لي طعامي وشرابي.

ارتاعت مادلين وانتفضت وكأن كلامها تسرب منه شرارٌ أحرقها وقالت بصوت جهورٍ:

- يا إلهي، هل تبخلين على وطنك، وتصبحين أنانية وتكونين آثمة؟

* ليس وطني، إنني أتذكر جيدًا حين تم جلبي رغمًا عني إلى هنا من وطني الذي لا أذكر الكثير عنه، وكانت لدي أمٌّ تحبني كثيرًا ولم تتخلَّ عني ولم أنسها يومًا.

ارتعدت مادلين أكثر وغمغمت في سريرتها:

* هذه الفتاة أصبحت تشكل مصدر خطر على باقي الفتيات، ويجب إبعادها عن ذلك المكان فورًا.

ونظرت إليها ومضت من المكان وهي تتوعد لها في سريرتها.

استدعى رئيس المخابرات الحربية النقيب «حسام» على نحو مفاجئ، وعندما ذهب «حسام» لمقابلته ونظر إلى معالم وجهه شرد فكره وأستنتج أن استدعاءه لم يقتصر على تقديم استقالته، فهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شأن أو مهام ذلك الرجل وأنه ربما الأمر يتعلق بتورط شقيقه مع تلك الطائفة فارتعدت أوصاله وصدمه ذلك الاستنتاج بشكل مؤلم واختنق صدره ضيقًا وخجلًا.

- أنا عرفت أنك قدمت استقالتك، زهقت من بطولاتك يا بطل ولا إيه؟

تمتم «حسام» قائلًا ببعض الارتباك.

* أنا أخدم بلدي بروحي وبآخر نقطة دم في جسدي يا فندم و ...

قاطعه رئيس المخابرات قائلًا باستعجال.

- عامة إحنا قبلنا استقالتك

شعر «حسام» بالضيق أكثر وانهارت العبارات التي رتبها في عقله في حالة رفض الجهاز الذى يعمل به لاستقالته، فكان يظن أن رفض الجهاز لهذا الطلب سيكون مكافأة له على ما قدمه من خدمات بطولات طوال سنوات عمله وأن الاستغناء عنه أمر مستحيل.

وبعد بغتة صمت أردف رئيس المخابرات قائلًا وهو يتطلع إليه.

- بس إحنا وافقنا بشكل مؤقت لأن عندك مهمة مستعجلة جدًّا في ألمانيا.

أمسك رئيس المباحث ملفًا مكتوبًا عليه بخط عريض (المهمة المظلمة) أعطاه لحسام وهو يقول.

- دي مهمتك، وقبل ما تقرأ الملف اتفضل على غرفة الإحداثيات هتلاقي اللواء «شكري» وباقي الفريق في انتظارك لأن الأمر مستعجل.

في اليوم التالي الساعة التاسعة صباحًا أقلعت الطائرة من مطار مصر للطيران، وعلى مدار ساعات الرحلة كان «حسام» يتأمل عبر نافذة

الطائرة من حين لآخر ما مر به وهو يردد في سريرته بعض آيات القرآن بداية من الصحاري الذهبية حتى فقد قدرته على الرؤية بسبب السحب التي غطت الأرض أسفل الطائرة، شعر حينها أن المسافة تنطوي ببطء شديد فغفا بضع ساعات واستفاق على زرقة البحر وتراءت له أمواجه البيضاء كلوحة من لوحات دافينشي، ثم جاء صوت مضيفة الطائرة وهى تعلن وصول الطائرة إلى مطار برلين، هبط «حسام» من الطائرة بخطوات وجلة متحمسة، أنطلق التاكسي الذى استقله إلى الفندق الذى سيمكث فيه كسائح، ترجل من التاكسي بهدوء بعد أن حاسبة ودلف إلى الفندق، انهمك في غرفته، وأخرج جهازه الحاسوب وبدأ في مراجعة الإحداثيات وحصر كل ما يتعلق بالخطة وفى اليوم المخطط لتنفيذها قررت السفارة المصرية أن تقيم حفلًا لليوبيل الفضي ...

عزيزي القارئ إذا كنت تظن أن المهمة المظلمة انتهت فأنت مخطئ، المهمة المظلمة ما زالت في مهدها الأول و لم تبدأ بعد ، فهل تظن أن النقيب «حسام» قادر على النصر فيها وعودته بابنة «ليال» إلى وطنها؟

انتظر الجزء الثاني لتكشف لك أحداثه عن كل شيء وأول الأحداث التي ستكشفها من الذي قتل دكتور «جيفري» ...

أو يمكنك أنت أن تشارك وتخبرنا بالقاتل لتحصل على جائزة مالية قدرها ألفي جنيه.

******